على خطى مجهول

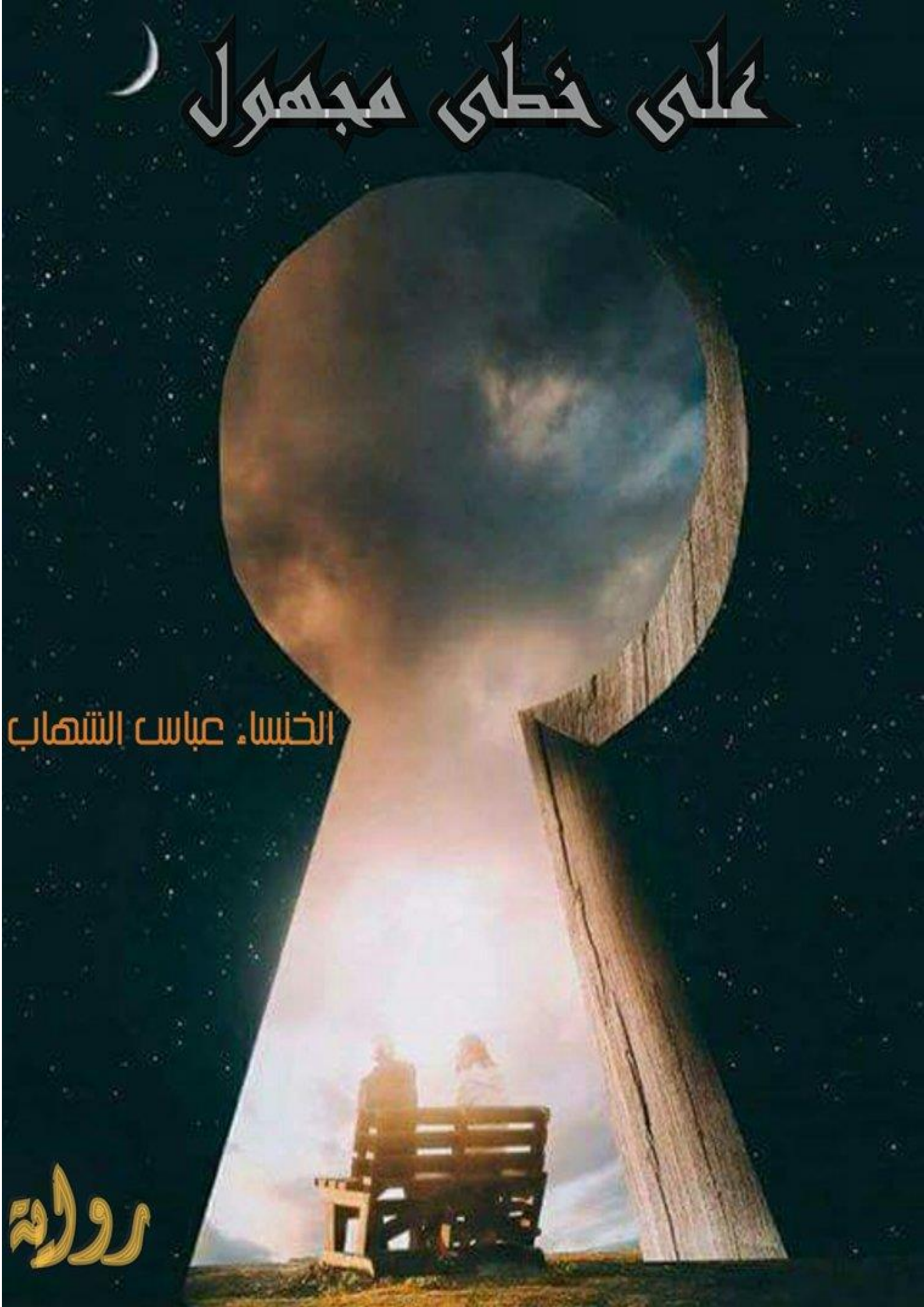

الخنساء عباس الشهاب

رواية

المؤلفة : الخنساء عباس الشهاب

تصميم الغلاف : رنيم قاسم

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

رواية :

على خُطَى مَجهولْ

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

للكاتبة :

الخنساء عباس الشهاب

إهداء إلى

أبي و أمي اللذين كانا لهما الفضل في وجودي على هاته الحياة بعد الله،
و أشقائي الثلاثة الذين يساندونني دومًا.
إلى رفيقتي، نوارة دربي، توأمة روحي، شقيقتي نور.

أحبكم .... دمتم لي.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

إهداء خاص :

إلى الذي صادفته حلمًا وخيالًا وصار واقعًا لي،
غزير الماء، شديد الجمال، محتال، نصاب.
إلى عينيك اللتان تشبهان البحر في زرقته وهدوءه، في غضبه وغموضه.
يا ملك روحي و صغيري، أيها العابر الغامض، والرجل الغريب.
إلى ذلك الذي علمني المشي على خطى مجهول.
إليك،
إليك يا أنت.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

إلى روحك الطاهرة البريئة،
يا أيها البشر صاحب قلب الملاك.

أنا بانتظارك.

أتعلم ؟ أنا وأنت ....

اشتركنا في حب المطر، وعشق البحر؛ فكانا أول قصّاصَين لي ....

لا تبحث عن أثرنا هنا؛ لأنك لن تلمحنا.

أكمل الرواية إلى الأخير؛ فربما يحدث اللقا.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

قصص تسرد في هذا الزمن، وفي كل قصة تحكى لشخص ....
يحمّلون الزمن أفعالهم وأخطائهم، أولم يعلموا أن الزمن لم يتغير؟

البشر فقط هم من يتغيرون.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

عاتبني الكثيرون لأنني تخليت عن عقلي واتبعت قلبي،

لأنني تمردت مرة فقط على حياتي في لحظة فرح، ومشيت في طريق مجهول،

لكن هل أنا من أرسم قدري وأختاره؟
هل أنا من أحدد مصيري؟
يا ترى هل كنت مجبرة أم مخيرة؟

هل كنت حرة أم مقيدة؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

كل شيء يمكن المفاصلة فيه إلا الأقدار؛ فهنا يتوجب علينا الرضا فقط!

لكل أولئك الذين مازالوا يؤمنون بالحب و يصدقونه،

أسألكم اليوم، هل بإمكانكم أن تحبوا على الرغم من كل شيء؟

يجتمع أحيانًا الإثم والبراءة في شخصين مختلفين،

والرابط الحقيقي بينهم هوا الحب.

من الغريب أن يعشق الليل النهار ومصيرهما ألا يجتمعا،

ومن الغريب أن يعشق القمر الشمس ومصيرهما ألا يجتمعا.

و الأغرب أن يعشق الإثم البراءة!

فهل سيجمع الحب ما فرقه القدر؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

معه هو جالست الشمس، عانقت القمر، صافحت البراءة، وراقصت الإثم ببراعة،

فكيف سيكون مصير هاته الفتاة؟

عندما تغيب، لا أعرف ماذا أفعل.

سأشتاق إليك شوقًا كبيرًا.

أجلس وحيدة، أحضن دميتي، سأنام باكية لا أكثر!

أتدري يا أنت إني أفتقدك الآن؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

باليوم الذي صادفته كانت الظلمة شديدة تحيط بالمكان من حولي فلا أكاد أميز حتى الطريق أمامي، فظهر هو كقمر أضاء ما حولي، كنور تجلى يدلني على الطريق، حدث أن تعثرت به، تعثرت بحبه، لم أكن أعلم حينها أنني سأقع في الحب دون أن يدركني أحد، أن أغرق في بحر عينيه دون أن يكون لي منجي، هكذا بدأت حكايتي معه.

لا أحد يعي ما ستصيبنا به أسهم القدر، وحدها الأيام كفيلة بأن ترينا هذا.

كأنني طفلة وقعت عيناها من بعيد على محل مليء بالألعاب، فراحت بخطى غير موزونة بقدميها الصغيرتين تطلع عليه دون أن تعي المخاطر التي يمكن أن تكون موجودة فيه، أخذت تتأمل المحل من وراء الزجاج، كم أعجبتها الأضواء، وبهرتها الأنوار؛ فأخذت تلعب وتقفز، تدور حول نفسها في أرجاء المكان كصغيرة تلبس ثوبًا طويلًا يشبه لباس الأميرات من شدة الفرح، حتى تعثرت ووقعت لتدخله.

يحدث أن نتعثر بحجر ونحن نقفز، نتعثر برصيف، بحفرة، بلوحة، بأي شيء أمامنا، لكن يجب أن نقوم من جديد.

أنا تعثرت بالحب، وأنا أطير كعصفور محلق خرج لتوه من القفص فرحًا بالحرية فإذا بقناص يصيده!

كفراشة حطَّت على الموت بجناحيها الصغيرين، وفي بادئ الأمر لم يثرها سوى الفضول للتطلُّع، ولكن لم تتوقع أنها غرقت في الظلام!

لا أنا خريف، ولا أنا ربيع.

كان الظلام يحيط بي، وكنت قاربت على أن أنتهي قوية، لكن رجلي باتت ضعيفة لم تعد تستطيع حملي.
أوراقي تساقطت كشجرة عرتها الرياح، أصبحت أقف دائمًا في منتصف الأشياء بين ذاك

وتلك، بين العاصفة والهدوء، بين الضجة والسكون، بين العتمة والنور، ألواني أصبحت باهتة وقاتمة كلوحة هطل عليها المطر قبل أن تجف فأفسد ألوانها، أنتظر بترقب طلوع ضوء مع بزوغ الفجر في هذا المكان، أحاول بخطى متعثرة أن أمشي خطوة واحدة، إما أن أتقدم للأمام، أو أرجع للخلف.

على خطى مجهول
الكاتبة عبلة الشهاب

للوقوف من جديد دون السقوط، يلزمني جرأة كبيرة وشجاعة.

ما المصير الذي ينتظرني؟

ما هذا العالم الجديد؟

طيري يا أحلامي كفراشاتٍ، تخلصي من الظلام، سألحقُ بك كفراشة صغيرة ترفرف مزهوة بعدما تخلصت من شرنقتها لتوها.

تجاهلت الصوت القادم من داخلي الذي يطرح دائمًا نفس الأسئلة لأتابع طريقي،

أترى أني غير مبالية للدرجة التي أخرس فيها صوت عقلي وأنصت لقلبي فقط؟

أم أنني فتاة لا تؤمن سوى بالقدر ولا تبالي بغير ذلك؟

إلى أين وجهتي هذه المرة يا ترى؟

إلى مفترق طريق جديد؟

إلى الحب أم الفراق؟

إلى وجهات مبعثرة؟

إلى غايات مشتتة؟

إلى اليأس أم إلى الأمل؟

إلى الحقيقة أم إلى المجهول؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

لم يعد كل شيء يعجبني ....

فأنا أريد فقط ما أريده حتى لو كان المستحيل!

حتَّى لو كان الجري لأيَّام أجوب الشوارع حافية القدمين تحت المطر،

أو المشي عارية الأفكار تحت سماء تثلج.

سألتني صديقتي:

- كيف حالك؟

قلت لها:

- بخير، الحمد لله.

- أي أنك أصبحت لا تتألمين؟

على خطى مجهول
الخذلان عباس الشهاب

- طبعًا أتألم، وبشدة، لكني سأتجاوز هذا بطريقة ما.

- أه يا عزيزتي أه، جميعنا نظل نتألم، لكن رغم ذلك نتعايش مع الوضع.

- في هاته الحياة استطعت أن أتجاوز كل المعوقات والأزمات إلا الحب، فيوم أصبت به لم أشفى إلى الأن!

****

بعض الأخطاء قاصصنا بها أنفسنا دون رحمة.

هناك لحظات ضاعت وراء أحلام مستحيلة بعيدة المنال، وأمنيات بريئة طفولية حلقت برفقة الفراشات وراء الغيوم فضاعت، هناك مشاعر أفصحنا عنها في لحظة حب مجنونة دون توخي العواقب.

رغم حزني العميق ....

أشعر بالفرح أحيانًا يتسلل إلى قلبي مع خيوط أشعة الشمس، لكن هل أنا حية؟

أم على قيد الحياة؟

أم أنني حية وميتة في نفس الوقت؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أم أنني أصبحت جسدًا بلا روح؟

فقط تعبت من الجلوس مطولًا على حافة طرقات الانتظار.

أنا اليوم متعبة حد الموت، مخنوقة حد البكاء بصوت هستيري، دون وعي أنهال على وسادتي منهارة كعسكري خرج مهزوما من حرب لتوه، ميتة أنا الآن!

****

صرخت عليَّ صديقتي قائلة:

-كفاكِ حزنًا يا فتاة، إلى متى؟

- لا أدري إلى متى صدقيني.

ثم تابعتُ:

- ضميني إليك، أريد أن أستفيق.

أصعب حزن و أقساه يا صديقتي هو الذي يغزونا، يسكن فينا، يستوطننا كمحتل، يزورنا بوجوه من نحب وعلى أشكالهم، دائمًا يتحرش بذاكرتنا بمخالب قطة مشاكسة فيوقظهم بداخلنا من جديد، هذا الحزن لا يجب علينا الوقوف أمامه كدروع، بل الاستسلام له ورفع الراية البيضاء.

هو لم يأتِ ليراوغنا حتى يهزمنا بخدعه وحيله؛ فنحن هزمنا منذ زمن، بل أتى ليسدل علينا الستارة الأخيرة فقط. أتى ليضع الملح فوق جراحنا الملتهبة، ليضربنا الضربة الأخيرة.

****

هاته الفتاة:

هل ستندم يومًا لأنها داست أراضي المجهول المحرمة؟

هل تحدت قدرها وتمردت على واقعها؟

أصبحت ذابلة تشبه أوراق شجرة مصفرة بعثرتها الرياح، لا يمكن سقيها لترجع إليها الحياة و لا يمكن زرعها من جديد.

****

هل يا ترى رماها حظها لهذا المكان؟

إنها لا تبالي أو تهتم، فالحياة والموت أصبحا بنفس المفهوم عندها، حُكم عليها بالسجن المؤبد داخل أسوار هذه القلاع، وبدون أي تهمة مسبقة، ومع أنها بريئة!

كان عليها أن تعي أنها ذهبت للخطر برجليها، لقد أرادت التطرف، والتمرد على قدرها كلعبة شطرنج غامضة، كل الجولات فيها لا تنتهي إلا برابح وخاسر، أرادت أن تنازل الحياة في جولة من هذه اللعبة وتهزمها، لكن سرعان ما أردتها الحياة خاسرة في أروع وأطول الجولات لعبًا.

****

هو شاب جذاب، جميل جدًا، بالعقد العشريني، يملك كل المقومات، وكل ما يتمناه باقي الشباب ممن هم في سنه.

إنه شاب، ولكنه غير الجميع يختلف عن البقية، لا يهتم بتفاهات الحياة وصغائرها، يملك اتزانًا عجيبًا، وقوة في شخصيته، وثقة كبيرة بنفسه، يختلف عن الجميع جدًا، هدوءه، وبرود دمه مخيفان!

يملك ذكاءً خارقًا مع فطنة حادة، أسلوبه في التعامل مع أمور الحياة جعله من أفضل الأشخاص في عمر صغير، ينتمي إلى أصل راقٍ يتفاخر به منذ صغره، كان والده من أثرى الأثرياء في بلده، ولم يحتج لشيء بحياته، لم يطلب شيئًا إلا وقد حصل عليه ونفذ على الفور، الكل يتمنى أن يحصل على ربع عيشته، طبيعية هي حياته مع عائلة تحتويه وتحتضنه، لكنه يبدو غريبًا حتى لأقرب الناس لديه، وهو أبوه، و هذا كان سببًا لشجارهما وخلافاتهما كل مرة.

كان يغضب منه مرارًا وتكرارًا بسبب تصرفاته، فهو يحس أنه غريب حتى عن عائلته، شخص واحد في هذه الحياة كان يفهمه ويعلم ما يدور في رأسه دون أن يتكلم، له منزل من أرقى المنازل، يسوق أغلى السيارات وأفخرها من مريديس لبورش لغيرها، يلبس أفضل الماركات وأغلاها، درس في الجامعة الأمريكية، تخصص إدارة الأعمال، ولكنه بعد سنتين توقف عن دراسته لينتسب لتخصص جديد وأفضل، فبدأ بدراسة تخصص فيزيائي.

منذ صغره يملك الحزام الأسود في (التايكواندو)، بارع وماهر، يمتلك موهبة منذ الصغر لا يملكها غيره كبر، وكبرت تلك الموهبة معه، لكن مع الأيام أتعبته وحملته فوق طاقته، مهاراته العالية كانت دائمًا تجعل من حوله يغار منه لا بل و يحسده فهو لم يحلم بشيء إلا و امتلكه.

كان أنيقًا جدًا، متفردًا بأسلوبه، لا يحب البِدَل الرسمية ولا يحبذها، كان عاشقًا للون الأزرق ويحب الزمرد، الرقم الذي يختاره دائمًا رقم سبعة لأنه مميز فهو يرمز لتاريخ ميلاده سبعة الذي تكرر في الشهر.

هادئ إلى أبعد الحدود، لا أحد يستطيع أن يستفزه أو يخرجه عن طوره بسهولة، حتى وهو غاضب يتخذ القرار الأصح في المكان الصحيح.

****

من هواياته القراءة، كان يخصص دائمًا وقتًا لذلك متعذرًا بقوله لي:

"أنا ذاهب لأمارس عادتي اليومية".

"أريد أن أستغل بعض الوقت المتبقي لي وأقرأ قليلًا".

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

"القراءة هواية جميلة جدًا، وأنا أحبها".

"أنا أقرأ فقط لأشعر أنني بخير".

ومن الروايات المحببة عنده: روايات شارلوك هولمز، والشرطة والتحقيق، هذا النوع كان دائمًا المفضل لديه، كما أنه يعشق وليام شكسبير وكتابًا عربًا من نفس أصله، لكن طموحاته دائمًا كانت كبيرة جدًا لدرجة أنها تقارب الخيال، طموحاته دائمًا غريبة منذ نعومة أظافره، كأن يشتغل بمهنة غير عادية، دائمًا يبحث عن الأشياء المحالة، يريد أن يلامس سقف المستحيل، ويصل إلى أبعد حدود الخيال بأمنياته، هو شخص شغوف، جريء، مرح، مغامر، غامض، وأنيق في الوقت نفسه.

عندما التقيت به أول مرة ....

كان تعارفنا صدفة، وما أجملها من صدف!

عرفته باسم محدد وشخصية عادية، ولكنها منفردة.

يعمل كعسكري خاص، ويبلغ من العمر 26 سنة، من أصل ويسكن بدولة ثانية، إضافة إلى شغله هذا يملك محل رياضي ومدرب تايكواندو، استغربت كيف ينسق بين ثلاثة أعمال معًا، لكن شخصًا مثله كان يستطيع أن يفعل ما هو أكثر، حين وجهت له سؤالًا كهذا ابتسم طبعًا، وأجابني إجابة شخص واثق من نفسه:

أنا أقوم بأشياء خطيرة في الوقت نفسه، فلا تستغربي.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

سكت هو لأستدرك أنا قائلة:

- أوه! ثقة يا عمي كبيرة بالنفس.

- هههههههههه الحمد لله، فكرتك راح تقولي غرور.

- لا تخاف أخر شيء خطر ببالي الغرور، بس في شوية غرور بالموضوع هيك حاسة هههههه.

- إسمعي، مرة كنت بسوق دراجة نارية، وبسرعة تفوق المئتين، ومعي صاحبي ميت من الرعبة، وفجأة شغلت موسيقى، لما وصلنا أخبرني أنو آخر مرة راح برجع يركب معي بدراجة نارية لأنو مو مستغني عن حياته ومو مجنون.

قلت له، وأنا مبسوطة مثل الأطفال:

- الله الله! يعني أنت بتسوق دراجات نارية؟ بعشقها موت، بس الحال أنو ممنوع بنات تسوق دراجات نارية بالشوارع عندنا.

- شي مرة إذا قدرت فيني أعلمك معي.

- جد بتعلمني بتكون عملت لي معروف كبير، بس وعد؟

- أكيد وعد!

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

مع الأيام حقق أكبر أمانيه، بتحمله وصبره حقق كل ما يرغب في الوصول إليه، كان تعارفنا مميزًا جدًا، لكني لامست فيه شيئًا غريبًا لم أعرفه ولم أستطع إدراكه، لفت انتباهي، وشعرت بشيء نحوه فهو منفرد عن غيره.

إحساسي تجاهه كان لا يطمئن!

أهو قلق؟ أم خوف من مشاعر أطلقت صفارات الإنذار مبكرًا؟

مشاعر اختلطت بين إعجاب وتعلق من جهة وحذر وخوف من جهة ثانية، شاب يملك كل شيء، ولكنه لا يبدو سعيدًا! لماذا؟

لكأنني لامست الحزن المكدس في داخل صدره، ووضعت يدي على جرحه، رغم أنه يبتسم دائمًا إلا أنني شعرت وكأنه يرسم ببراعة الابتسامة على وجهه فقط.

الخنساء عباس الشهاب

تساءلت بداخلي:

إنسان يملك كل هذه الأشياء والمميزات بهذا العمر الصغير، ما هو الشيء الذي يجعله تعيسًا من الداخل؟ ماذا ينقصه بحياته؟

تكلم ليبدد أسئلتي و حيرتي، ويقول لي:

- القلوب المحاطة بدخان معتم اقرب إلى الموت من غيرها،
الوجوه الحزينة أقرب للتعاسة من غيرها،
الشمس الخافتة أقرب للغروب من غيرها.

قلت له مستغربة:

- أرى في عينيك سحابة سوداء توشك أن تمطر!

رد عليا متفاجئًا:

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- ألهذه الدرجة يبدو هذا الشيء جليًا على وجهي؟

- أتعلم؟ تلك السحابة تحتاج لشمس حتَّى تبددها.

ثم ابتسمت في وجهه وواصلت قائلة:

- قلبك هو شمسك فأنصت إليه جيدًا.

قال:

-أنْتِ يا جميلتي بحياتي كنور الشمس.

****

يتعامل مع الجميع بمبدأ:

(دع الناس يتكلمون عن أنفسهم)

قال لي ذات مرة:

أتعلمين أن علاقاتنا بالبشر تبدو غريبة حيث أننا من نلون علاقاتنا بهم، فلنختر الألوان التي نريد كي لا نلوم الأقدار فيما بعد.

ثم أكمل:

تذكري دائمًا أن خياراتنا الصعبة هي التي تصنعنا، وتؤكد متانة الإيمان في داخلنا، وأن سعيكِ للانتصار على أعباء الحياة يستلزم تضحية حقيقية وجهد ضخم، والميدان طويل يستلزم المثابرة.

إن كل يوم في حياتكِ هو فرصة جديدة، عيشي بقدر ما تستطيعين، جربي بقدر ما تستطيعين، وتذكّري أن المعنى الحقيقي للحياة هو أن تنظري للخلف لتجدي أنك سعيتي بقدر ما استطعت لتكوني إنسانة حقيقية لا مجرد مجموعة من الظروف.

لا تترددي، لا تخافي أن تخطئي، إن الخطأ الناتج عن خياراتك الحرة سيجعلك سعيدة دائمًا، صدقيني، ففرحة النجاح فيما تم تخطيطه لك ستظل ناقصة دائمًا.

ما أعرفه وما تعلمته من حياتي الخاصة أنه لا شيء يستحيل الوصول إليه، لا أمل معدوم،

ولا هدف بعيد المنال، رغم جميع المصاعب التي تواجهن يوميًا والمخاطر التي تحيط بي، طالما أن الإصرار والإرادة موجودين لا بأس، لكن السير في طريقك يجب أن يكون مصحوبًا بقلب محب حتى يهون عليك ما قد تتعرضين له.

إصرارك بمواصلة الطريق رغم كل ما تواجهين سيذلل كل العقبات من أمامك و يوصلك للقمة، لكن عليك أن تكوني أنت نفسك، لا تتصنعي من أجلهم ولا تخافي، إذا أحببت شيئًا، عبري عن هذا، وإذا لم يعجبك، عبري برفضك.

دعي عنكِ التصنع جانبًا، لا تخفي عينيك بكحل عربي، ولا تضعي أحمرًا للشفاه حتى لا تفقدي طفولة وجهك، امسحي المستحيل عن أهدافك، و انطلقي وراء أحلامك التي بنتيها، لا تجعلي أي حاجز يحول بينك و بينها.

إياكِ أن تعيري كلام الناس اهتمامًا، فمهما مشيتي في هذا العالم بشكل مستقيم ستجدين يومًا من يرى أن ظلك معوج، كوني كالكشافة، فأنا برأيي إن لم تكن كشافًا في حياتك السابقة فأنت لم تتعلم حقًا!

وعليك أن تري الحياة من جميع الجوانب، فيمكن أن يكون الجانب الآخر هو الأكثر إشراقًا للشمس.

لا تخجلي من طلب المساعدة أبدًا، طلب المساعدة لا يعني أنك تتسولين على الناس لطلب حاجتك، أنتِ لا تركضين خلف أحد، أنت تركضين خلف أحلامك، فلا تدعي الإحباط يا صغيرتي يتسلل إليك، فالإحباط يجعلك تسلكين الطريق الخطأ رغم علمك بذلك، ويجعلك تكملين فيه بالرغم من هذا!

****

عندما يسألك أحدهم:

من أنتِ؟ ومن تكونين؟

احذري دائمًا، تمهلي، فكري جيدًا قبل الكلام، وميزي، فهناك فرق كبير بين الإنسان

الذي يقول:

هذا ما لديّ، أنا أحب كذا وكذا، ويبدأ بتعريف نفسه.

ومن يقول:

ماذا تريد أن تعرف عني؟

على خطى مجهول
الخزباي عبد الشهاد

الشخص الأول اختصر كل الكلام، وبدأ بتعريف نفسه للآخرين على حسب ما يعرفه هو، أما الشخص الآخر فيريد أن يعرِّف عن نفسه على حسب ما يريده منه السائل، كوني دائمًا ذكية، لا تتعجلي، ففهم السؤال سيساعدك في الرد.

****

أتعلمين يا سيدتي؟

بحياتي لم أمقت شخصًا، لكني أكره بل وأحتقر أولئك الذين يكونون من نفس البلد ويفتخر أحدهم مختالا ليحكي بلغة غير لغته الأم حتى يثبت أنه أفضل منهم.

أنا أملك ثلاث لغات: العربية، والإنجليزية، واللغة الثالثة هي لغتي الأصلية التي نشأت عليها، اتركيها حتى أخبرك عنها يوما ما، لأنها تختزل كل الأشياء معها.

قاطعته لأقول:

- رغم أنه مجرد حدس، لكنِّي أظن أني عرفتها!

فضوله أجبره على سؤالي:

ما هي؟

أخبرته قائلة:

أظن أنها اللغة الروسية.

لكنه صمت، ولم يجبني.

فهل هذا دليل على أني أصبت؟

أم أنه تجاهل إجابتي حتى لا أدخل في دوامة أسئلة جديدة وأسقط باقي الاحتمالات؟

****

كان دائمًا واثقًا بنفسه ثقة عمياء، أناقته، طريقة حكيه، كل شيء يخصه فريد من نوعه، يومًا عن يوم أصبحت أكتشف شيئًا جديدًا في طباعه، تصرفاته، حركاته، كل شيء بدأ يشدني إليه،

حتى أنه بمرة قال لي ممازحًا:

أتعلمين لو أن المزز (كلمة يطلقها على البنات الجميلات) لو رأين جمال عيني، وهدوئي وشياكتي، وشمن عطري وثقتي لأصابهن الجنون، لا تنسي تواضعي طبعًا!

رددت:

- هنيئًا لك بهن، أنت تبدو بكلامك هذا في قمة التواضع! أما أنا يا سيدي فلا يعجبني ولا يلفت انتباهي رجل تحوم حوله النساء أبدًا، يا نرجسي، أتعلم أن أخطر صفة هي النرجسية التي تمتلكها؟

ضحك ثم قال:

- كنت أمزح معك!

رددت:

- لا، فأنت نرجسي مئة بالمئة.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

كانت النرجسية دائمًا موضوع جدال بيننا ينتهي بابتسامة جميلة تعلو وجهه.

****

كان يحاول أن يوقع النساء بحبه مغترًا بنفسه، قائلًا أن :

"كل من مرّ بحياتهن أحببنه"

تقف مستغربة، تتساءل في نفسها:

كم من النساء مررن بحياته يا ترى؟ وهل الآن هو على علاقة أم لا؟

أسئلة كثيرة تدور برأسي، أريد أن أسمع إجابتها، كل الأسئلة تدور وتتمحور حوله هو فقط، لماذا أصبحت أفكر به كثيرًا؟ لماذا بات لا يفارق مخيلتي؟

لماذا فجأة صار يعنيني أمره إلى هذا الحد؟

وهل أسئلتي هذه التي تدور في رأسي تعني بداية تورطي في حبه؟

لكنني فضلت الصمت، وأن أظل أكتم كل شيء في داخلي.

****

أصعب شيء بالحياة أن يملك الإنسان كل ما يتمناه غيره ولا يثق بأحد، يظل متربصًا لأن الكل سيخونه بيوم من الأيام، أو يتغيرون عليه، أو يغدرون به ليتركوه، لذلك كان حتى لو أحب فتاة فضل أن يخبئ مشاعره و يواريها خفية عن الجميع حتى لا يتمرد عليه قلبه، فهو لم يعتد أن يتجرد من معطف غروره ونرجسيته ليتنازل ويفصح عن ما يشعر به في قلبه، أو يحس الطرف الثاني بحبه فيتكبر عليه، لقد اعتاد أن يقتل إحساسه قبل أن يلتف عليه يومًا ويخنقه بمخالب الندم.

الخنساء عباس الشهاب

****

بحياته لم ولن يعترف أنه خسر شيئًا، يتفاخر بأن الكل خاسر ما عداه!

كان دائمًا يفضل غيابًا متكررًا على قطيعته النهائية.

غروره ونرجسيته سيطرا عليه، أردياه كجسد هامد لا نفس ولا روح فيه، فهو نرجسي، وأنا قرأت مرة أن مرآة النرجسي عمياء وعماها لا يداوى.

كان غموضه إحدى سماته المميزة، وصمته من أسلحته التي لا يتنازل عنها أبدًا، لم يحدث أن غاصت امرأة في أعماقه واستباحت ما في عقله.

قلت له يومًا:

- أنا لا أثق في رجل نرجسي مغرور.

اكتفى بضحكة صغيرة!

لم يقل لها أنه لا يثق بأحد: لا النساء، ولا الأصدقاء، ولا بأي أحد موجود من حوله، لا يثق بالحب ولا يأمن له كثيرًا، قد تكون الظروف التي مر بها جعلته هكذا فلم يعد يرى ويثق بمن حوله، أو أن حياته الغامضة فرضت عليه أن يكون هكذا،

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

لم يعد يثق سوى بشخصه.

الثقة والشك لا يجتمعان معًا، فالباب الذي يدخل منه الشك محدثًا فوضى في داخل الإنسان تخرج منه الثقة بهدوء معلنة الرحيل.

لربما كان عليّ أن أعيش بعضًا من حياته حتى أفهم ما يقصد وما يحس، لتحكم على من حولك يجب عليك أن تتجرد من نفسك قليلًا وتضعها في محل غيرك، لكن أسوأ شيء بالحياة أن يملك الإنسان كل ما يتمناه غيره لكنه لا يثق بأحد، يظل معتقدًا أن الكل سيخونه بيوم من الأيام، أو يتغيرون عليه، أو سيرحلون ويتركوه،

حياته فرضت عليه أن يصنع علاقات بأشخاص دون أن يتعلق بأحد.

قال لي مرة:

- يرحل الجميع ويتركون خلفهم روائح لا تنسى، يتناسون العهود والفروض التي فرضوها قديمًا علينا وعلى أنفسهم، يمزقونها بكل سهولة لمجرد أسباب واهية، لا يوجد عذر مقنع يمنع قلوبنا عن النزيف، لكن دائمًا نقول أنها مجرد أيام نتعلم منها قوانين الطبيعة، يرحلون دومًا لنموت يومًا بكل صمت معلنين انتهاء وقت المطر، مطر الدموع الذي كان يحمل ألحان قلوبنا الحزينة.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

في عينيه الجميلتين يقبع حزن وراءه خَوْف طِفْل،

طِفلٌ مَرِح يجلس خلف ذلك الشاب، يحتاج إلى حنان.

الخنساء عباس الشهاب

بدأ يكتب كعادته بمزاج معكر وسيئ جدًا، هو الذي يعشق الكتابة على الورق كما أخبرني، إنه يعتبرها فضفضة كبيرة، كتاباته دائمًا مميزة، يعبر بها عما بداخله بطريقة مذهلة، دائمًا ما يكون بهذا المزاج الغريب بسبب ما حوله وما يمر به، يعلم تمام العلم السبب وراء كل هذا، لكنه لا يدري متى يرتاح، تمنى لو استطاع تغيير ما حوله، ولكن لا قدرة للضحية في يد جلاده، لفرط حبه لنفسه اعتاد الاحتفاظ بها جيدًا، فغدا إنسانًا يدعي القسوة، لا يبالي لمشاعره، ولا يعطيها اهتمامًا.

****

قال لي ذات مرة:

- أتعلمين؟ رغم كل الظروف المحيطة بي لا توجد قوة في الأرض تجعلني أحب رغمًا عني ما لا أحب، أو أرضى رغمًا عني بما لا أرضى، و هذا هو المخبأ الوحيد الذي تبقى لي والذي لا تستطيع أن تدمره قنبلة ذرية أوهيدروجينية (مصطفى محمود).

أنا وفيّ جدًا، ومخلص في جميع علاقاتي: مع غيري، مع الأشخاص الذين أعرفهم، وحتَّى مع ممتلكاتي، و أشيائي الخاصة البشر أغلبهم يكون لديه رغبة في التجديد، تجديد حياتهم، حديقة بيتهم، منزلهم، بيئتهم، الناس الذين يحيطون بهم، لكنني عكسهم، أحترم علاقاتي وأقدرها، لا أستطيع التفريط في ممتلكاتي بسهولة، فأنا أملك أشياءً كثيرة ببيتي القديم: مكتب، ولوحات منذ سنوات موجودة هناك، يمكنك القول أن بيننا عشرة وسنين طويلة ولا أستطيع التفريط بهم مهما حصل، لم أستطع أن أتخلى عنهم، أصبح من الصعب جدًا أن أستبدل أشيائي القديمة تلك بجديدة ليس لها أي قيمة سوى ثمنها؛ أما أشيائي التي أمتلكها فهي غالية جدًا، قيمتها المعنوية والتاريخية تفوق أي ثمن، أملك كذلك طاولة خشبية قديمة وكرسيًا هزازًا بحديقة بيتنا، كما أني أملك تحفًا قيِّمة كنتُ أقتنيها كلَّما ذهبتُ إلى بلدي الأم كأسلحة قديمة وخواتم وأثار ومقتنيات كثيرة لها قيمة معنوية كبيرة، ليس معنى تصرفي هذا

أنني إنسان بخيل لا يحب الشراء، أو إنسان من العصر القديم كما يراني البعض، أو لا أحب أن أتغير، لكنني لا أفرط بشيء يخصني، والإنسان الذي يحافظ على ما يملك من البديهي أن يحافظ جيدا على الأشخاص الموجودين بحياته ....

منطقه كان صحيحًا في التعامل مع البشر.

واصل حديثه:

- كما قال مصطفى محمود التقدم لا يعني بتاتًا أن يمتلك الإنسان القوة بل أن يظل داخله مملوء بالرحمة، عندما يتجرد الرجل من رجولته ويستبيح الشرف وينتهك جسد امرأة بالضرب فإنه هنا لم يعد رجلًا إنما يصبح (حيوانًا).

- عذرًا، حتى الحيوانات لا تستبيح الإناث بهذا الشكل، أي قوة وأي تسلط هذا عندما توجع امرأة أو تجعلها حزينة؟ عذرًا، أنت أدنى من أن تسمى ذكر، لا يوجد مبرر في جميع الأديان السماوية أو الأعراف الدولية او الأعراف المجتمعية يبرر هذا أو يهيئ له.
- تبًا، إن كل كرهي واستحقاري لمثل هذا الفعل الدنيء حيث يشعرني بالغثيان....

ثم واصل، قائلًا كلمات من روائع الكلم لمصطفى محمود:

"إن تربية الفضيلة في النفس أمر مختلف عن تسمين الدجاج أو تربية الأسماك، فليس للفضيلة وصفة علمية تنمو بها ولا بذور تشترى من السوق؛ لأن الفضيلة نور؛ ولا يمكن أن تنير النفوس إلا بالاتجاه إلى مصدر الإشراق، إلى الله صاحب الفضل في كل فضيلة".

****

سألني فجأة:

- أتعرفين معنى الغربة؟ الغربة الحقيقية هي الابتعاد عن أشخاص يعتبرون ذاكرة زمانية ومكانية لأرواح ضعيفة وهشة كأرواحنا.

****

على غير عادته قال لي ذات في إحدى المرَّات و هو يحدِّثني أنه يشعر بخوف في داخله، فسألته و الحيرة بادية على ملامحي متعجبة :

- لماذا تشعر بالخوف؟

أجابني بقلق :

- لأني بدأت التعلق بك بل صرت بصراحة معجبًا بك وبتفكيرك، وأخاف أن يكبر هذا الشعور.

باستغراب قلت :

- وما المخيف بالأمر؟

أجابني و الحزن يتملَّكه:

- لأنني بنهاية المطاف سأرحل في دربي، ولا أريد أي شيء يتمسك بي.

كان أول مرة يتعرى ليقول شيئًا ما في قلبه، أول مرة يفصح عن مشاعره أمامي هكذا دون أي استعداد، و رجل مثله لم يعتد على هاته الطريقة، سيعتبر نفسه خاسرًا في هذه اللحظة مستسلمًا، كانت هذه أول مرة، فهل ستكون هذه الأخيرة؟

قلت مسترسلة :

- ولكن لماذا ترحل؟ وإلى أين؟

- يومًا ما إذا أتيحت لي الفرصة سأخبرك كل شيء، الآن لا يمكنني إجابتك، قولي فقط يا رب.

- يا رب! لكن ماذا حدث؟

- أوه، لا تكثري من الأسئلة، لا أستطيع قول أي شيء لك الآن، لا تجبريني على الكلام، سيأتي يوم وأخبرك بكل شيء، لا تكثري من الأسئلة، فقط قولي يا رب!

****

استغربت كثيرًا هي، لكنها مع الأيام صارت تعي أن أسلوبه لا بأس به، فهو سيجنبه الكذب عليها، ربما كان يعتقد أن عليه إذا أراد أن تعشقه امرأة بجنون وتصبح ملكه أن يخبرها أنه في أي لحظة يمكن أن يذهب في دربه، أمَّا هي فكانت تؤمن أنَّ عليها عندما تقع في حب أحدهم أن تتخلى عن أشياء كثيرة لتحتفظ فقط بمن تحب، و لهذا تخلت عن أغلى الأشياء في حياتها وهي روحها و قلبها، وأتت إليه يومًا فلم تجده!

****

مع الأيام توطدت علاقتهما وصارا قريبين من بعضهما، أصبح يحكي لها بعض الأسرار التي تخصه وتخص عمله، واستطاعا بفترة وجيزة أن يصبحا بهذا القرب.

فجأة بدأ ظهوره شبه منعدم، كثر غيابه، لا يسأل ولا يستفسر!

تذكرت ما قاله مرة أنه "يومًا ما سيخبرها كل شيء".

ماذا يقصد بكل شيء؟

ثم كررت جملته الثانية التي تبعت الأولى:

"إذا وَصلْت إلى الضِّفة الثانية بأمان".

عن أي ضِّفة يَتحدثُ؟

أيكون قد نفذ ما أراد فعله منذ زمن؟

أسئلة لم تجد أحدًا يجيب عنها.

كان كلما أراد أن يغيب يخبرها، لكن هذه المرة كل شيء مختلف، اختفى فجأة ولم يسمع له لاحس ولا أيُّ خبر، اختفى دون أن يترك أدنى شيء لتطمئن عليه، هي لا تعرف عن خصوصياته سوى أشياء سطحية فقط!

الخنساء عباس الشهاب

أين يسافر؟ متى يعود؟

إلى أين يذهب؟ وهل هذه رحلته الأخيرة؟

تعلقت به كثيرًا، أدمنت وجوده معها، ظلت تترقب رجوعه، لكن دون جدوى، ظلت تبحث عنه وتبحث، لكن بدون فائدة، تعبت من السؤال عنه، لقد اختفى مرة واحدة، حزنت كثيرًا فقد كان يعني لها الكثير، أكثر حتى مما يتوقع، لم تتسنى لها الفرصة لتخبره عما في قلبها، وبالأخير استسلمت ورضخت للوضع، فلبست الثوب الأسود حدادًا على روحها البريئة الطاهرة، وقررت الصمت للأبد واعتزال الكل!.

ها قد سلم نفسه للغياب، وسلمني لساعة الانتظار الطويلة.

ككتاب أنا موضوع على رفٍ بالٍ قديم مملوء بالغبار ينتظر يدًا تمسحه، كزهرة أعيتها العواصف والرياح فانحنت لتستريح قليلًا، سكنني حزن الفراشات الجريحة ولم أعِ بعد كيف أن الربيع لم يأتِ، سنظل على حافة الأرصفة ننتظر، لا ندري ماذا ننتظر، نظل نتفقد بين المارة أشخاصًا علقوا بذاكرتنا، عاهدونا لينسوا العهود، سنظل نجوب المكان ونتفحصه بدقة شديدة لعلهم مروا من هنا، لعله بقي القليل من عطرهم في الهواء منثورًا، لقد غادروا مع الطيور المهاجرة، غادروا مع أسرابها الراحلة، ليعلنوا لنا أن موسم الخريف قد بدأ،

أظنه سيطول هذه المرة... سيطول كثيرًا.

مع الأيام وفي ليلة بائسة مظلمة ممطرة تاهت هذه الفتاة الصغيرة، ضاعت في وسط غابة مظلمة، وقعت عيناها من شدة الظلمة الحالكة على ذلك الضوء الخافت والبعيد الذي

سيكون مصيرها بيوم من الأيام.

مدينة تبدو جميلة ورائعة من الخارج، وطئت قدماها شوارعها وإذ بها ترى كل شيء صامت، شوارعها مهجورة، كل الأشياء فيها موحشة، حتى الهدوء الذي يسودها، تهيأ لها أنه صرخات لوحش يتألم من الوحدة، الغربان تقف مصطفة وكأنها تنتظر لتغتنم الفرصة وتنقض في أي وقت على فريستها، ترى ظلا ينعكس وتقترب منه، فإذ بها ترى شخصًا

غريب الأطوار، رجل، ولكن بقلب وحش!

أو وحش بقلب رجل!.

على خطى مجهول
الحسناء عباس الشهاب

يغمغم بحروف و يتمتم بكلمات غير مفهومة.

تساءلت متعجبة :

هل الحزن يرتديه؟

أم أنه هو من يرتدي الحزن؟

وكأنه يبحث عن مصدر للفرح، مصدر للضوء، يمزقه الوجع وينتابه ألم شديد، لكأنه ينتقم من نفسه، يرتدي عباءة سوداء وكأنه يلبس الغموض غطاءً.

هل عرفتم من هذا؟

إنه رجل انتهت أحلامه وأعدمت على أبواب الواقع، يبحث عن مصدر للفرح فلا يجد طريقا له، رجل مات قبل أن يولد، أكلته الوحدة والصمت، وكأنه يقول لا تقتربوا مني فأنا صاحب هذا الجسد، لكني غامض، كلما أراد النهوض صفعته الخيبة، كلما تقدم خطوة أرجعه ماضيه الدفين خطوات للوراء، فظهر الوحش على أشلاء رجل مهترئ وقديم، أكل جميع خلايا السعادة فيه ورماه على شواطئ الحزن والألم يصارع لوحده، لكنها أحبته!

هل أحبت الوحش؟ أم الرجل؟ أم أحبت كليهما؟

أحبته كما هو، كلما نظرت إلى عينيه ترى فيه براءة الأطفال، وكأنه يعاتبها بنظراته قائلا :

- أين أنتِ منذ زمن عني؟ لماذا تركتني هنا وحدي؟

ويطلب منها أن تأخذه خارج هذه الأسوار، يمكن أن يؤذيها، لكنها تتذكر قصة الحسناء والوحش، وكيف استطاعت الحسناء أن تخلص الأمير من قلب الوحش وسحر المشعوذة في نهاية المطاف وترجعه أميرًا كما كان من قبل، و تنتزعه من داخله لترجعه لأصله ببراءتها، إخلاصها، تضحيتها، وحبها له.

فهل تنجح الفتاة في ذلك؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

كلَّ هذا حدث و جرى معه لأسباب كثيرة، أسباب لا تعد ولا تحصى، ضاع هو وسط هذا الظلام،

عندما تدفن الحقيقة ظلمًا ويزيف الواقع بهتانًا،

عندما يقتل من يستحق الحياة على يد من يستحق الموت،

عندما تنتحر الأماني شنقًا على عتبات الحقائق،

عندما تعدم الأحلام قصاصًا بنهش أنياب الذئاب الجائعة،

عندما يصبح الصياد هو الحامي،

عندما يتحول الجلاد إلى ضحية،

عندما تبرر الأفعال الدنيئة للبشر وتختبئ وراء (كل شيء ممكن الحدوث)،

عندما يطغى الكذب على الصدق ويغلبه،

عندما ينتصر الباطل على الحق علنًا،

عندما يعم الظلام في أوج النهار،

عندما تتلطخ النفوس بالإثم،

عندما تدنس البراءة،

عندما تختلط العفة بالخطيئة،

عندما يعم الحزن والألم والوجع والفقد،

عندما تتبعثر السبل ويطمس الواقع لتتعرى وتظهر الحقيقة ككابوس،

عندما يهرب الحب كالعابث الأخير،

عندما يكون السند الوحيد هو صاحب الظل الطويل الأسود البعيد،

كل هذا حدث في هاته المدينة التي غرق فيها هو،

تاه في هذا العالم المظلم منتظرًا بلهفة من يخرجه منها ليتحرر.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

استوقفها أنينه وصراخه الذي ملأ الشوارع، دنت منه، وهي تحدق بملامحه وكأنها عرفته،

إنه نفس الشخص، نعم هو!

بعد قطيعة وغياب دام أربعة أشهر تقريبًا، إذا بالقدر يجمعهما صدفة ودون أي موعد مسبق.

قالت له مستغربة :

أنت... أنت هو ؟

نفس الشخص، ولكن بهوية ثانية، هوية غريبة غامضة عنها تمامًا، تعرفت عليه من تمتمات وكلمات كان يرددها منذ زمن.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

ماذا جرى لك؟ من أنت يا هذا؟

قال لها:

- أنا رجل ليس لي حاضر، ما زلت أنقش في حائط الماضي، وأعيش بين أحضانه مغتربًا،

و مهما فعلت لا أستطيع نسيانه أو التخلص منه، أنا أعيش في الزمن الغابر، أحلامي

و أمالي كلها انتحرت في زمن المستحيل.

ثمَّ استرسل قائلا :

أنا حزين، أنا الجزء الآخر من كينونتي، أنا رجل ميت لا محالة، أقع في الجانب المظلم مني، استيقظت الجروح في قلبي، أفتعل الذنوب كثيرًا وأبكي مثل الحمقى، أشاهد النار من حولي فأمد يدي لألمسها فتحرقني، أنا حزين كما يحزن العابدون، أحاول التنقيب في داخلي عن

قليل من الفرح فأتذكر أني الجزء الآخر من كينونتي، ذلك الجزء الذي المثقل بالذنوب والخطايا، فتضيع روحي وهي تتجول في دهاليزي المشوشة، لا تقتربي فأنا الموت بحد ذاته، أنت تبدين لي طفلة بريئة طاهرة نقية بيضاء كبياض الكفن، وأنا رجل ماضيه أسود معتم لا ينتظر سوى قبره لينام فيه، كلما تحرك وقف أمامه شبح الماضي، لا تقتربي مني أكثر لأن الموت حول عنقي يخنقني، ستقتلين نفسك فصاحب هذا الجسد وحش بقلب قاسي.
قلت له و أنا خائفة :

- دعني أجرب، أنا ميتة لا محال، فالموت بجانبك أفضل من الموت لوحدي، إما أن آخذ بيدك وتتخلص من هذه المدينة أو أن نموت معًا وندفن في أزقتها، يجب أن نضحي من أجل من تحب فالحب تضحية، حتى لو كان الثمن حياتنا.

****

مدينته الصباح فيها كالمساء، لا تشرق الشمس فيها أبدًا، الصمت المخيف يجتاح شوارعها، العصافير التي كانت تملأ الدنيا بزقزقتها حلت محلها الغربان، الحزن مرتسم على كل شيء وقعت عيناها عليه، حتى الأشجار والأزهار فقدت بريق ألوانها، مدينته التي كانت تضج بالفرح والسرور، بالبسمات والضحكات، اليوم تعيش في حزن، يخيم عليها الحزن، والألم، والدموع ،والغربة، يسودها سكون وهدوء يخيف القلوب، لا يسكنها أحد غير أنين الأوجاع، مدينة مغلقة على من فيها لا أحد يدخلها ويخرج منها سالمًا، لا أثر لسكانها! الشوارع خالية، تشتم رائحة الحنين المعبَّقة داخل أروقتها، الاشتياق منحوت كوشم على جدرانها، لا تسمع إلا صوت ريح تعوي في أرجاء المكان و صدى بعيد، و أنين رجل شاب في ثوب عجوز مسن يئن كطفل صغير، عندما نظرت لعيونه لأول وهلة شعرت بشعور غريب، رأت ما لم تره عند معظم الناس، إنه رجل بقلب طفل، أو طفل في جسد رجل،

بداخل عينيه براءة الصغار، وجسده كثوب بالي قديم، أكل عليه الدهر وشرب. تتساءل في حيرة :

- لماذا يعيش وحده؟

ومن يا ترى رماه محبوسًا بداخل هاته الجدران؟

هو نفسه أغلق على نفسه أبوابًا مظلمة كبيرة لا تفتح لأي شخص، جدران مصنوعة من الألم والوحدة، مكسوة بظلام مخيف هو اللون السائد لها، يتخبط وحده بين شوارع هذه المدينة، يحفر بأظافره كل يوم جدرانها لعل النور يتسرب إلى مدينته، حتى ينال منه الإرهاق ويسقط مغشيًا عليه.

يطالع جدران غرفته التي تبدو بدون سقف مهجورة، أرخى الزمن حيطانها، ولا يوجد فيها سوى سرير يرتمي إليه كلما نال منه التعب، وطاولة خشبية قديمة ما زالت تقف بشموخ بجانب سريره غير المريح، و برواز على الجدار المقابل مكسور معلق به صورة لوجه فتاة نصفه غير واضح، تقترب فإذا بها ترى نفسها في الصورة!

ولكن الملامح غير واضحة كأن المطر سقط على اللوحة فذهبت ألوانها، فوق مكتبه صورة لامرأة لا تتجاوز الأربعينيات، هي الوحيدة بين أشيائه التي لم يأكلها الغبار، يحافظ عليها جيدًا لأنها تعني له الكثير، ولكنها قديمة، تحاول لمسها فتسمع صوت أنفاسه يتزايد وكأنه يصرخ بها ويقول أرجعيها لمحلها ....

" لا تلمسيها "

هذه الصورة هي لأعز إنسان غادره وكسره فراقه، صورة لأمه التي ودعته قبل أربع سنين فجأة، في غرفته يتسلل بصيص خافت لضوء القمر، وفوق الدرج أوراق مبعثرة لخواطر كان يكتبها لها، تبدو كأوراق جريدة بالية، يراقب الوقت وهو يمر ببطء وحزن، أصبحت كل معالمه حزينة، يستمع بتركيز إلى دقات الساعة تك... تك

وكأنها تعبث بالأفكار التي في رأسه فتشتتها، فتح عينيه المرهقتين، رفع نفسه بصعوبة من على سريره البالي، عيناه تحدقان بالفراغ، إنه منتصف الليل، ليلة هادئة، لكن عواصف الألم والوجع لم تهدأ في قلبه، تنهد في صمت مطلقًا أنفاسه الحارة، زفرة حارة خرجت من أعماق قلبه، و لكأنه يتخبط كعصفور مذبوح من شدة الألم، رفع عينيه إلى الأعلى كشخص مذهول شاحب الوجه، دنوت منه قليلًا، استغربت كثيرًا من الحالة التي وصل إليها، أردت أن أسأله أسئلة كثيرة، فأطلقت عليه وابلًا من الأسئلة دون إدراك مني:

الخنساء عباس الشهاب

ما بالك أصبحت في هذه الحالة؟

لماذا أنت مقيد وحبيس هذه الأسوار التي صنعتها؟

لماذا أصبحت تعيش وحدك هكذا؟

أنت فضلت العيش هكذا؟ أم أن أحدهم رماك هنا؟

إلى متى سيظل الخوف والماضي يسيطران على حاضرك؟

متى تتحرر من كل شيء؟

متى تواصل طريقك دون أن تلتفت إلى الوراء؟

لما تبدو مدينتك مظلمة؟

ما سبب هذا الظلام المخيف؟ لما شوارعها مخيفة مهجورة؟

أهذا حلم أنت فيه، أم أن الألم قد أعياك؟ أجبني بالله عليك

لا تجعل للآلام قوة حتى لا تنقض عليك، لا تجعل من نفسك فريسة الأحزان، لا تكن جبارًا كطاغية على جسدك، لا تتخلى عن ذاتك وسط هذه الفوضى أنقذ نفسك من نفسك!

انسى كل شيء و ابدأ من جديد، دعنا نحاول معا، لا تفقد نفسك، أنا معك، ألا تدري؟

إنك تهمني، أنت تخصني، إنني أخاف عليك وأقلق كثيرًا، وأريد رؤيتك مثلما كنت بالماضي، أريد أن أرى الإنسان الذي لا يستسلم، ما هذا الحزن الكبير الذي بداخلك؟

لا تترك الوحدة تلتهمك، يا أنت، متى ستعتزل كل هذا وتغادر هاته المدينة؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

ألن تأخذ إجازة؟ ألم تتعب بعد؟

مدينتك صارت تعزف لحن الموت والخوف فقط، و كأن الألحان الأخرى: الفرح، والسعادة سرقها منك غيرك، لماذا أصبحت باهت الملامح شاحب الوجه كعجوز طاعن في السن؟ لماذا صرت تحب الأسود كثيرًا؟ هل نسيت كيف تبدو بقية الألوان؟

أرى خوفًا فظيعًا يسكن بعينيك، ما سببه؟ أخبرني.

ما سر هذا البكاء الذي يسمع كالهمس بعيد؟ متى سيحل الربيع وترجع العصافير وتنتشر الفراشات؟

ارمي كل القيود وامضي.

أجابني والحزن يعتصره:

- صغيرتي، عندما عرفتني لأول مرة كنتِ تنظرين إلى قناع أضعه، قناع مجوف العبارات فيه عبرات وشتات، ارسم اللون الأبيض في القناع لأغسله في المساء، وضع الأقنعة اكثر وجعًا مما تتخيلين، لا أريد أن أظل حبيس قناعي لزمن أطول،

ألا يكفيني حبس وسجن القدر؟

- لكن في درب الحياة ....

لابد أن نستمر في المضي للأمام رغم كل الجراح، أتعلم؟ رغم كل هذا الغموص عرفتك ....

وما كدت أنهي كلامي حتى قاطعني:

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- يا طفلة!

تذكرت تلك الأيام التي ولَّت عندما كان يناديني "يا طفلة"، "يا بنت"، "صغيرتي"، "جميلتي"، ألقاب رائعة لم يتجرأ أحد يومًا أن يناديني هكذا.

- أنا بهذه الحلة الجديدة شخص آخر، أنا في الحقيقة لست نفس الشخص الذي عرفتيه يومًا، لا صوتي هو صوتي ولا ملامحي هي ملامحي، كل شيء عرفتيه عني كان مبهمًا وسيظل مبهمًا، أنا شخص غامض أكثر مما تتخيلي، أكتسي بلون الغموض، هذه حياتي وهذا طريقي، لن أكذب عليك مجددًا، يجب أن أقول لكِ الصدق.

أنا.... عالم لم تدخلينه بعد.

أنا.... كل شيء عني خيال ووهم.

بنبرة حزينة قلت :

- لكن أنا لا يهمني أن أعرف عنك أي شيء، المهم أن أعرف أخبارك وأنك على قيد الحياة وبخير، لا تخف لن أكثر الأسئلة، سألتزم الصمت من اليوم فصاعدًا.

واصل كلامه مسترسلا :

- أنا شخص آخر، إلى الآن لم تعرفيني لذلك يومًا ما سأذهب في طريقي.

- أتعلم أني لما أحببتك أحببت روحًا؟ لم أحبك لأصلك ولا لمنصبك ولا لجاهك ولا لجمالك، دون أن أعرف أي شيء صحيح عنك، أحببتك لشخصيتك المميزة، لروحك الجميلة، لقلبك الطيب، ونفسك النقية، ومستعدة أن أظل مع رجل غامض.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

قاطعني مستغربًا:

- مستعدة أن تظلي معي ؟

مع رجل غامض مجهول لا بعمرك رأيتيه ولا عرفتيه ولا سمعتيه، رجل يرتدي عباءة سوداء.

- نعم مستعدة، فقط خذني معك.

- كل ما تعرفينه عني خطأ،

ماذا تعرفين عني ؟

اسمي فقط ؟

- اسمك، عمرك، شكلك، الدولة التي تسكن فيها، أعرف ذلك الرجل الرائع الذي جمعتني به أحلى صدفة يومًا من الأيام.

- ذلك الاسم ليس اسمي الحقيقي، لون عيوني؟ مخطئة فهو ليس بأسود ولا بني أساسًا، وعمري ليس بالضبط كما تعتقدين، لكن مقارب للذي تعرفينه، أين أسكن؟

ليس لي بلد معين، أنا دائمًا مسافر، كل شيء عرفتيه عني يومًا كان غامضًا، و لا زال، وكل الأشياء التي قلتها لك ستظل مبهمة.

استغربت كثيرا منه وأردت أن أقول كلامًا من شدة ذهولي، لكنه عرف ما يدور برأسي.

- لا تسأليني لما فعلت كل هذا!

شغلي وظروف عملي تتطلب أن أظل طوال العمر غريبًا، أن يتلبسني الغموض ولا أظهر حقيقتي لأحد.

- وأنا قلت لك أني لن أحقق معك، أنت تريد أن تبقى هكذا غامضًا ومجهولًا فلتبقى، لكن أنا نفس البنت التي عرفتها، كل ما عرفته عني كان صحيحًا.

- أعلم أنه صحيح، أنت فتاة بريئة، أرأيت كيف آمنتِ لغريب دون معرفته؟

سألته بنبرة حزينة:

- لكن ألا تثق بي؟

أجابني:

أنا لا أثق بأحد إلا نفسي، هكذا علمتني الحياة، الحياة التي عشتها والسراديب التي أخذتني فيها الحياة أرهقتني وتركتني دائمًا أمشي بالظلام وحيدًا، ولو كل الناس من حولي تضحك سأظل وحيدًا.

- لكن أنا...

لن أتركك وسأظل معك حتى ولو بقلبي.

- أعرف أنه بوقت من الأوقات ستتركينني، وكل من معي الآن سيتركني فقد اعتدت من الكل الهجر؛ لذلك أحمل بداخلي خوفًا كبيرًا.

- مستحيل أن أتركك لو كان هذا آخر يوم بحياتي، حتى لو تركتك جسدًا قلبي سيظل معك للأبد.

- لكن الأيام علمتني أن الكل يذهبون ولأتفه الأسباب أحيانًا، لكني سأظل أعيش على وهم أن كل من معي الآن لن يتركني لأنهم ما تبقى لي كعائلة.

أومأت له برأسي و علامات الحزن بادية على ملامحي فقال لي معتذرا :

أعتذر مِنْك يا جميلتي، فأنا لم أعد أؤمن بأي حقيقة حولي، أنا أعيش، لكن ليس في الواقع، أنا فقط صدمت بالوهم الجميل والخيال البعيد الذي كنت أعيش داخله.

- ولكن أتعلم أن حياتي كلها كانت مبنية على حلم بعيد المنال؟

إلا أنْتَ كنت ذلك الوهم والخيال الجميل الذي وضعته فوق واقعي.

فجأة يشغل موسيقى حزينة،

سألته مستغربة:

- لما كل هذا الحزن؟

قال:

- الموسيقى حتى وإن كانت حزينة فهي عبارة عن خيوط تلاعب أرواحنا المتعبة بكل حالاتها، أعتقد أن الموسيقى محفزة في جميع حالاتها، تتفرع من أرواحنا اليتيمة كأغصان من

الفرح، لكن سرعان ما تنكسر لأن مصدرها هش ضعيف، حزين، وحيد، غريب، ضعيف، مريض، يتيم، أليم، جريح، مفقود، لا أريد شفقة احد، ولا أريد عطف احد، يكفيني أن تعطوني نايًا حزينًا مثلي، لأظل أعزف عليه ألحانًا تتبعثر في مهب الريح بعد عزفها.

- لما كل هذا الدمار ؟

ولما تحتاج إلى ناي فقط ؟

سرح طويلًا ثم أجابها:

- لكل منا حكاية حزينة، لكنها ليست أشد حزنًا من حكاية الناي نفسه، فالناي عبارة عن آلة تعزف الأحزان بفن يشبه من يرسم من الدم لوحة، ليتك تعلمين أني اختنق ببطء كل يوم، اللحن لا يعزف بقلب واحد لأنه لحن حزين.

- الطريق صعب فيجب أن نسلكه معًا يا صغيري.

واصل كلامه:

- أنا رجل يختلف عنكم كثيرًا، لا يهتم بتفاهات الحياة وصغائرها، يمتلك اتزانًا عجيبًا وقوة شخصية وثقة كبيرة، قلبه قلب وحش وعيناه تحملان هدوءًا مخيفًا، يتمحور العالم حولي فلا تقتربوا.

- إلى متى سيظل هذا الرجل هكذا ؟

وإلى متى سيظل الخوف والماضي يسيطران على حياته ؟

متى يرمي كل شيء وراء ظهره ؟

لقد صار يعتبر نفسه روحًا ميتة في جسد حي، لم يعد أي شيء في الحياة يهمه، أصبح رجلًا آخر، تصرفاته صارت غريبة، أكان دومًا هكذا وكان يحاول إخفاء ذلك ليتعايش مع الناس؟

على أبواب السماء تتصاعد روحه كل يوم، وكأنها تقول أريد الموت فقد تعبت ولن أستطيع الصمود طويلًا، روحه صُلبت وبقي جسده كوعاء فارغ لا معنى له، هذا ما يسمى بموت الأرواح، ويبقى الجسد جثة هامدة مرمية على جانب الطريق دون حراك، لقد صدقت هذا الرجل الغامض مرة، فهل ستثق به مجددًا؟ وهل يعرف هو أصلًا طريقًا للصدق؟ ألا زال يملك القليل من المشاعر؟ أم أنه تحول إلى وحش حقيقي؟

هل ستجد الفتاة الطريق؟ أم أنها ستضيع في شوارع هذه المدينة البائسة وتسجن بها للأبد؟

على خطى رجل
الخنساء عباس الشهاب

تبعته بخطى خافتة وقلبها يرجف، جلست في الغرفة أمامه على الأرض، هدوء يسود المكان فلا تسمع غير أنفاسه تصدر صوتًا غريبًا، أنفاس و تنهدات لشخص خائف حزين موجوع يتألم، وكأن شيئًا يطبق على أنفاسه ويحاول كتمها، وعلى أطرافه صمت فظيع يفتقد أشياءً كثيرة، غرفته مظلمة، الوحش جالس يتحين فرصة لينقض على أشلاء هذا الرجل الحزين، هو لا يحن لشيء سوى لنفسه القديمة، يحن لأيام مضت ولن ترجع، يشتاق لأمه التي غادرته منذ فترة، إنه يفتقدها كصغير يأن ويحمل لعبته ويتجول بالشوارع باحثًا عن الطريق الذي ذهبت إليه، لازال مثل الأطفال يصدق أن أمه تشاهده من فوق، وهي الآن انتقلت للسماء لتجلس بجانب النجوم، ما ذهب لن يعود، لكن ألم الفقد أكبر من أن يتحمله أي إنسان عادي فقد شخص عزيز على قلبه، شخص يعني له الأمان، يعني له الحياة كلها.

كل يوم يناجيها بالليل:

- كان الجميع تافهون يا أمي، لم أرى بعدك أحدًا بذلك الثوب الجميل الذي يتزين بثوب بالنقاء، كان الجميع مخيفون يا أمي، كان الجميع كاذبون يا أمي، كانوا غريبون جدًا.

لماذا رحلتي؟

أخبريني، هل أنت بصحة جيدة في العالم الآخر؟

هل الطعام جيد يا أمي؟

هل تشتكين من شيء؟

أمي أخبريني، كيف تبدو النجوم وهي قريبة لا أعلم شكلها عن قرب؟

أمي أبي قد رحل، ذهب وتركني، ذهب بعيدًا إلى تلك المدينة الموحلة التي لطالما كنتِ تكرهينها، نعم تركني، لم يهتم بالوعد الذي قطعه، جميعهم ذهبوا لم يوجد يعد أحد بجانبي، أمي أنا لم أعد آكل جيدًا في هذه الأيام ، منذ سنين طعامي أصبح مرًا لم أعد أتذوقه مثل السابق، لم أعد بتلك الملامح التي يملأها بالألق، لم أعد ذلك الطفل البشوش.

أمي هل تعلمين؟

لقد اجتزت كل الأهداف التي رسمتيها مذ كنتِ بجانبي، اجتزتها بنجاح، لكن لا أعلم لما لا أبدو سعيدًا ؟.

أمي هل تسمعين كلماتي؟

أمي أنا أموت اختنق، أمي بيتنا القديم مازال موجودًا، مازالت شبابيكه مقفلة منذ رحلتي، مازالت جميع أبوابه مقفلة.

الطيور توقفت عن المجيء، الآن أعيش في منزل مرتفع جدًا، ليس كبيرًا كذلك المنزل القديم، يقال أنه جميل؟

لكنه في نظري كوخ محطم، هل ترينه من السماء؟

نعم، جميع الأنوار فيه خافتة؛ لا تبهرني الأنوار الساطعة، أمي هل تستمعين لدقات قلبي؟

أصبحت أبطأ، أصبحت أصعب، إذًا أخبريني متى سيتوقف عن العمل؟ لم أعد أقوى على الاحتمال.

كطفل هو، الكل تركه حتى والده تخلى عنه ورحل إلى أميركا دون أي رحمة، تركه وحيدًا

وذهب ليعيش لنفسه، تزوج وتركه كالطفل تائهًا.

ظن أن ابنه كبر عن الحنان والعطف، لكنه للأسف لم يعلم أننا نظل كالأطفال مهما تقدم العمر بنا، سنظل دومًا نحتاج إلى لمسة من أهلنا تمسح عنا الألم وتداوي جراحنا، أناني هو ومنعدم الضمير، لا يدري أن ابنه يموت في اليوم مئة مرة كلما تذكر الماضي، هجر بيتهم القديم حتى لا تراوده ذكريات أمه، كل يوم يكتب لها ويحاكيها، يتوسل لها، يسألها، يحاول اللحاق بها.

و عندما أتى العيد خاطبها والحزن يعتصر قلبه:

- الجميع يحتفلون يا أمي و ما تزالين أنت حفلتي الأخيرة، عندما أنظر إلى أشعة الشمس أشعر بدفء حضنك الرائع، و عندما أنظر إلى السماء أشعر بمدى رحابة صدرك، وحين أنظر إلى الحقول أتذكر لون ثوبك عندما كنتِ تقرئين لي كتابًا عن (المعلم ومارغريتا).

لا تزال نبرتك الحنونة عالقة في مخيلتي إلى اليوم، وماتزال رائحة عطرك المميزة في حقائبي، تبقى القليل من عطرك وصار بمثابة أيقونتي أحميه بدمي، لا تزالين يا أمي متربعة على عرشي

ومحال أن يجرؤ أحد على المساس بعرشك حتى أقابلكِ، فللحديث بقية ومعكِ يا معلمتي الأبدية قصة مختزلة لم تحكَ بعد.

أمانيّ بسيطة جدًا.

أتعلمين يا جميلتي أن أمانيّ كانت بسيطة جدًا حتى أن الجميع سخر مني؟، لكن رغم بساطتها لم تتحقق بيوم من الأيام!

في سوق الأمنيات كانت هناك أمنية بقيمة (دولار)، كانت جدًا بسيطة وهي أن أجد صوتًا قديمًا لشخص متوفٍ، لكن للأسف لم أكن أمتلك ذلك الدولار.

لاتزال بداخله براءة الأطفال.

قال لي:

- طفل جميل يقول لطفل آخر بكل رقة: أعطني ألبوم صوري التي كانت معك.

فرد: أسوف تبيعني؟

- ماذا أبيعك؟

- ذاكرتك!

- عفوًا فإن بذاكرتي صورًا كثيرة لأمي وإخوتي وخالنا وعمتي وكل صورة هي ذاكرة، أخاف أن يموتوا فأصبح وحيدًا دون ذاكرة.

هذا الطفل أنا، وذاكرتي القديمة مازالت باقية، لكن أحبابي رحلوا منذ زمن ولم يبقى لي سوى مجرد الصور.

كيف تتوقع هذه الفتاة من هذا الذي هجره أغلب أحبته وحيدًا أن يثق فيها؟ إنه لم يعد يؤمن بهذه الأشياء، لم يعد سوى رجل من الماضي مرغم على عيش الحاضر.

كيف تأمل أن سيكون لها سندًا إذًا؟
فجأة ينطق:

هذا أنا والآه تعصرني وتتلذذ الجراح بجسدي، رفقًا بقلبي وروحي المتعبة أيها السارقون فلقد أخذتم مني كل شيء، روحي محطمة ضائعة، وقلبي يلمح كل مرة وداعًا قادمًا، أنا ميت من الداخل، مجرد من الإحساس، أحاول التعايش مع الوجع، لكن الوجع يرفضني فيزداد الألم بداخلي، أرضى بالواقع، لكن واقعي هو الآخر يرفضني ولم يعد يقبلني، في قلبي أحزان دفينة لماضٍ أليم بعيد يكسرني كلما تذكرت، أقابل الموت كل مساء بابتسامة، يلفني الوجع، تيار الحياة جرفني إلى شواطئه الضيقة وحسرني، أظن أن زمني الحقيقي غير هذا الزمن، ومكاني غير هذا المكان، لكني اخترت أن أسبح ضد التيار وأن أشاكس الحياة، لكنها فاجأتني دون سابق إنذار فصفعتني صفعة قوية وأصبح عالمي بائسًا، ألمح البشر وهم في عالم آخر غير عالمي وأنا جالس على كوكب مجهول، في هذه الدنيا مشيت كثيرًا، لكن خطواتي تاهت خلف سراب بعيد، لا أدري إلى أين أذهب، أظل أقول وأمني نفسي أن في الغد كل شيء سيكون على ما يرام.

وفي داخلي لا أعلم ولا أدري ما ينتظرني بعد هذا السراب، هاوية أم قاع سيشدني للأسفل ككل مرة؟
أم حقيقة يصعب تقبلها تدفن كل أمالي المتبقية؟
شيء ما يلتف حولي، يسجنني، يجمعني ببشر واهمين يعيشون في الخيال مثلي تائهين، أمشي مادًا يدي للأمام، أبحث عن يد تمسك بي لتسندني، الكل يأس من هذا ولازلت أنا أمد يدي!

****

واصل حزينًا:

- أتعلمين أي حزن يستيقظ داخلي؟

وكيف يشعر الشخص الوحيد فيه بالضياع؟

كأن طفلًا بات يهذي قبل أن ينام بعبارات عن أمه التي أفاق منذ أربعة أعوام فلم يجدها،

وحين ألح بالسؤال على من حوله قالوا:

بعد غد ستعود، لابد لها أن تعود!

فتبكي روحه الصغيرة حد التعب.

رجفة أصابت جسده كمحموم يحتاج إلى عناق والدته، كرجفة الطفل إذا خاف من الظلام.

مشاعر البشر تتقلب مثل الفصول الأربعة إلا أنا، لا أعلم السبب، لقد توقف الزمن في مخيلتي عند فصل الخريف، يبدو أن الخريف يشبهني كثيرًا.

أتعرفين لماذا؟

كلانا يبدو باللون الخريفي الأصفر الباهت الحزين، كلانا يمتلك تفاصيل موحشة ومخيفة بداخله، كلانا تتساقط جميع أوراقه مصفرة ياسبة، كلانا يسكنه الفراغ في داخله، كلانا نذهب ونغادر، كلانا يحمل أثقالًا على كتفيه كجبل، وكلانا يسكنه الخوف في الأعماق.

لقد استطاعت الكآبة أن تسيطر على جميع حياته، الوحدة رسمت له وحشًا أصبح مع الوقت جزءًا منه لأنه اكتشف هو الآخر أن الوحش قابع بداخله.

هل تعرفون شيئًا عن اليوم؟
اليوم هو يوم جديد على أشلاء رجل قديم مهترئ يسكنه الحنين لأيام مضت، انتهى وقود أحلامه على أبواب الحياة وانتحر دون أن يعطيه أي فرصة.

لقد بدأ العد التنازلي لي، فاليوم هو أول يوم فيما تبقى لي من عمري.

كفن أسود يلتف حول روحه ويحكم القبضة عليه كل يوم، لكن أين قبره؟

متى سيكون يومه؟

لذا اختار عيشة الأموات؛ لأنها أرخص وأهدأ من عالم الأحياء، حياة بائسة حزينة لا صوت فيها يعلو على صوت الموت والحزن، أجراس الموت تدق في أذنه ليلًا ونهارًا، لا يرى أمامه سوى الظلام، ولا يسمع إلا صراخًا بعيدًا، واللون المسيطر هنا الذي يمر على أعينه هو اللون الأسود فقط.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

قال لي:

- في مدينتي الجميلة ....

أصبحت كل الأشياء موحشة رغم جمالها الفائق حتى الضجيج، في وسط مدينتي ....

يبدو أنه زمجرات لوحش تطبق على أنفاسي، وفي أطرافها صمت فظيع، كأن الوحش الداكن العميق يتحين الفرصة للانقضاض على أشلاء رجل حزين، هذا الرجل أنا!

كان دومًا يتنقل مرتديًا عباءته السوداء حتى لا يتكمن أحد من معرفته، تلك العباءة التي تحجبه عن الجميع و يتلبسها الغموض.

نطق:

- أنا إلى الآن سر ليس هنا من يعرفني، لكن يمكن أن أصف نفسي بشرط ألا تتخيليني كثيرًا لأنكِ سوف تنجنين.

- واثق من حالك كثير، أجن ليش؟ راح اتخيل مهند؟ ولا توم كروز؟ ومن قال بدي أتعرف عليك؟ خليك سر يا العجوز!
- لون عيناي ليس بأسود ولا أزرق.

قلت ساخرة:

- أه، والله لون العيون الذي ذكرته لا يعجبني قط.
- شعري ليس أشقرًا ولا أسودًا، وعيوني لا تظلي تنظري فيهم كثير راح تسحرك، لا أنا طويل ولا قصير، ولا سمين ولا نحيل، هادئ وغامض لا أحب الأشخاص الأغبياء، دومًا وحيد، راح تشوفيني عكس الشباب، عملي لأقصى الحدود ومرح في أي وقت، لكن صعب تعرفي إني مرح لأن أغلب الناس تتخيلني مغرور أو متكبر، ما أعرف لما يواجهون دائمًا صعوبة في الحديث معي، إذا شفتيني اليوم بمكان معين صعب تلاقيني فيه مرة ثانية.
أهم شيء فيني متشيك بهتم بالتفاصيل الصغيرة في ملابسي، ورائحة العطر متجددة دائمًا على حسب الفصول والمناطق.

- اي حلو، الله يخليك لحالك ولمززك، أنا رائحة عطري صعب أغيرها، عصبية، ومزاجي يتقلب بسرعة، طبيعية، أنيقة، لكن مو لدرجة الهوس، إنسانة يسهل التواصل معي، لكن صعب يعرف أقرب الناس شو قاعدة أفكر.

واصل كلامه:
- أكره الشخصيات الفضة بشكل رهيب وأحب الأشخاص الهادئين.
- أما أنا أحافظ على أشيائي حتى لو كانت بكلة شعر صغيرة، أحب جمع الأشياء، نعم عملية، لكن ليس لدرجة كبيرة، أمزح كثيرًا، لكن دائمًا أضع حدودًا، كل من أعرفهم حتى أهلي يقولون أنه لابد من تعامل خاص معي، لكن عندما أجد شخصًا بنفس تفكيري سوف يسهل عليه التعامل معي.

- كما أنني أكره النساء اللائي يتزين بشكل فظ، أحب في النساء البساطة.
- أنا والمكياج تقريبًا أعداء، لكنني أشتريه فقط لأضعه زينة لغرفتي، أحب أشياءً غريبة مستحيل أن تحبها كل البنات، أحب مبدأ (خالف تُعرف)، أبدو من الخارج هادئة، لكن هناك تصرفات تزعجني ورغم ذلك ما أكشفها للكل، مرات ابتسم حتى لو انزعجت كي لا يكتشف أحد نقاط ضعفي.

ثم أكلمتُ:

- متى ستخلع عنك عباءتك السوداء هاته حتى أستطيع رؤية الشخص الموجود بداخلها؟

هكذا كان ذلك الغريب صاحب العباءة السوداء، مجهول الهوية، صاحب الظل الأسود الطويل.

ترجع لتلقي نظرة من نافذته المنكسرة، مدينته يستعمرها السكون، جدرانها محطمة، شوارعها مظلمة وحزنها باذخ، باتت الأشباح تسكنها، في كل منتصف طريق ذكرى، هاجرت الطيور، وهو يجول ببصره ويفتش بين حطامها كطفل يبحث عن الألعاب فلا يجد سوى خيالها.

لما تبدو مدينتي مظلمة؟ لما تبقى مظلمة؟
شوراعها أصبحت مخيفة، والناس لم تعد سوى أرواح، حتى الأطفال صاروا كدمى قديمة بالية، إنها كئيبة حزينة يسودها الصمت.

- إن الظلام البادي لكِ ليس سوى انعكاس لداخلي، كل هذا سببه الفراق المؤلم لمن أحببتهم ورحلوا بصمت، منهم من غادرني دون أي سبب أو لسبب تافه، ومنهم من انتزعته الحياة مني وأجبرته على الرحيل إلى عالم أخر غير هذا، كلهم رحلوا محدثين خلفهم

ضجة وفراغًا، رحلوا وتركوا قلبًا بائساً حزيناً ينتظر، يزورني الخوف كل يوم لأني أعلم أنكِ سترحلين مثلهم، لكن رغم ذلك ما زلت أمنّي نفسي وأوهمها أنك لن تتركيني أو تتخلين عني كما فعل البقية، يا صغيري شيء في داخلي يدفعني إلى اليقين أن الربيع سيحل هنا قريبًا ربما هو مجرد أمل!

حياته كل الخيوط فيها متشابهة، لونان فقط بارزان: خيط أبيض يسمى العيش، وآخر أحمر يسمى القتل، ليس هناك خيار ثالث.

يحاول أن يسحب كل الخيوط البيضاء بحذر، لكن كل الخيارات أمامه مقفلة.

قلت له:

- دائمًا في هذه الحياة هناك خيار آخر.

- أنت مخطئة، فالله عندما خلق الحياة أوجد جنة ونارًا، وليس هناك ثالث لهما.
النهار كأنه ليل حالك الظلام، كل شيء هادئ هدوء الأموات، الأسوار في هذه المدينة عالية، لا أحد يوجد هنا غيره هو وبيته العاري، في مدينته كل شيء ساكن، الظلمة شديدة فلا تكاد ترى سوى بريق عينيه، يرفع رأسه وينظر إليها،
ويتمتم بداخله:

- أين أنتِ منذ زمن؟ ولما تأخرتِ هكذا؟
يئن كطفل صغير،
ترى ما الذي جعلها تقع في حبه؟
من يحب رجلًا بقلب وحش؟

من يذهب إلى النار حرًا مفتح العينين؟

من يجازف بحياته ويدخل ساحة معركة دون أن يعرف عدوه من صديقه؟ لكنها رأت فيه ما لم يره غيره، رأت أنه يحمل قلبًا أنظف من كل البشر، عندما اقتربت منه

اكتشفت شخصًا آخر يجلس بداخله، طفل بريء، حنون طيب، خائف يقول لا تبتعدوا عني، لا تتركوني وحيدًا هنا، أخرجوني من هنا، أريد الرجوع إلى العالم الحقيقي، أعيدوني إلى عالمي الذي كنت أسكنه.

لكن كيف لها أن تساعده؟ كيف تخرجه؟
ينظر إليها بيأس ويعاتبها:

- لماذا أتيت إلى هذا المكان؟

غادري فمدينتي باتت مظلمة ولا تليق أن تسكنيها، غادري قبل أن تدفني هنا حية، غادري اليوم ولا تعودي مجددًا غادري، لا تنتظري كتاباتي فالحمام الزاجل ما عاد يوصلها، كل شيء هنا أصبح مجرد رماد هيكل عظمي محترق، قلبك البريء وروحك الجميلة لن يتحملا كثيرًا، يمكنكِ أن تتألمي من ذكرياتي الموجعة، ارحلي قبل أن يأتي الظلام من جديد، ارحلي قبل أن تأكلك الوحدة وتقضي عليك، وينال منك الحزن مثلي، لا تبرري أي شيء لي، أرجوك لا تتوقفي هنا، لا تتكلمي معي، لا تسألي عني، لا تستفسري عن أي شيء ترينه موجودًا حولك، ابحثي عن غيري، عن شخص يفيض بالنور، ابحثي عن إنسان غير عالق بماضيه، عن إنسان مغمور بالفرح والسعادة، عن شخص غيري أرجوك!

فهنا لا يوجد حب، انعدمت الرحمة ولن يعيش، فكما تلف العنكبوت خيوطها على فريستها وتلتهمها تقتل مدينتي المحبين، تنصب الكمائن لهم، تغدر بهم لتتخلى عنهم في الطرقات مشردين، في مدينتي الحب أصبح كالموت في تفاصيلها المبهمة والمعقدة، في مدينتي الحب يُعدم، يُقتل قبل أن يُولد، الحب شيء لم ولن تعترف به، في مدينتي الدمار منتشر والخراب سائد، تصبح الألوان باهتة وتفقد بريقها، فانظري جيدًا للألوان المتواجدة هنا،

اللون الأسود ذاك يعكس أرواح البشر السيئة، كل شيء مظلم أسود، مدينتي اليوم غامضة وأنا ضائع فيها.

كل المحبين بالأخير فرقتهم، لا أحد يعلم حتى الآن لما لا يعيش الحب هنا، الحب هنا مجرد أساطير خرافية وذكريات مؤلمة، الحب منعدم الوجود بمدينتي، الكره فقط هو المسيطر لأنه لم يعد هنا أي صدق، فقط الخداع والمصلحة.

أرأيت أننا نرسم الحب على الجدران كالأطفال، نذكره، نحاول تلوينه وكتابته، لكن دون جدوى، سيظل الحب غامضًا كحكاية رواها أحد المسنين ذات ليلة لأحفاده ووعدهم بأن يكملها في الغد، لكن وافته المنية ليبقى الحب غامضًا إلى يومنا هذا.

نطق فجأة:

- سأقول لك نصيحة، الفراشة الجميلة دائمًا ما تعشق النار لأنها تعتبرها نور فتظل تقترب منها حتى تحترق.

- هل ستندم فيما بعد؟

و مازالت تلك الفراشة تقترب من النار؛ لأنها تعشق الألوان، حتى تقع وتحترق فلا حياة وسط النار، لكنها أحبت المغامرة وعشقت التحدي فلقيت حتفها.

هل تحزن الفراشات لأن فراشة واحدة تمردت؟ لا، بالطبع الحياة ستستمر.

هذه هي الفكرة التي أرادت إيصالها للرجل الغامض، أنها ميتة لا محال، فلما تهرب من قدرها؟

هل قدرها المشؤوم سينتهي بها كهذه الفراشة؟

لقد وقعت ولا مجال للتراجع،

فلم الرجوع؟

وكيف سيكون؟

لن تستطيع الخروج من هذه المدينة بإرادتها فمصيرها الآن بات مجهولًا، أمامها خياران لا ثالث لهما، هي تعلم أن الطريق الذي اتخذته مليء بالأشواك، لكنها لن تدع أي شيء يوقفها، إما أن يتخلصا من هاته الأسوار ويستطيعا الخروج معًا أو ينتقلا إلى المجهول وتصبح حياتها أقسى من حياة الوحش.

أنا غريب يكتب و يدون فوق حجارة الوادي تفاصيل غربته، أتعبته وآلمته وحدته، واصل والألم يعتصر قلبه:

- أنا أعيش في مدن الأحزان وحيدًا وكأن المدينة الحزينة وطني، وطن يعيش في تفاصيلي الحزينة، كل يوم يزداد غموقا ظلامًا نحو المجهول.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

سألته متعجبة:

- ما هذا الحزن الكبير الذي بداخلك؟

أرى وحشًا بجسم إنسان، لا تترك الوحدة تلتهمك فيظهر الوحش وتفقد انسانيتك، دع الوسطية في كل المشاعر حتى لا يتغلب الشر على الخير، افتح أسوار مدينتك الجميلة الموحشة فلربما مر عابر سبيل و أدخل الفرح إليها أو تسلل ضوء الشمس فغيَّر الألوان بنظرك.

- يا جميلتي، الأبواب المظلمة لا تفتح لأي عابر سبيل لأن أقفالها صُنعت من عظامنا الصلبة المكسوة بظلام مخيف يكاد يكون اللون السائد لكل شيء في مدينتي.

ارتبكت بداخلي ثم واصلت:

- لكن أخبرني، متى ستعتزل وترحل؟

أجابني:

الله الله! تقنيتك في الحبكة أثارت دهشتي، رائعة أنتِ بكل تفاصيل الكلمة من معنى،

في العادة لا أمدح أحدًا، لكني اليوم مدحتك سيدتي الجميلة.

فرحت كثيرًا لأنه مدحني؟ أم لأنه فهم معنى كلامي؟

لكن لا فرحة تبقى وتدوم للأبد.

خاطبني وكأنه يعاتبني:

- أتعرفين عن موت المشاعر؟

ذات مساء

عندما قابلت الموت كنت أبتسم ابتسامة باردة، هذا ما يسمى بالموت الداخلي.

وما بين الفرح والسعادة هناك مكان في المنتصف، هناك مكان للماضي و الذكريات العتيقة، مكان بقيت فيه ولم أغادره، مكان للحزن العميق، مكان للذكريات المؤلمة التي لم تهجرني، مكان بشع ليس ككل الأماكن يا جميلتي.

- لما أنت تعيس لهذه الدرجة أخبرني؟

- روحي متعبة مجهدة، أنا محطَّم من الداخل، مستحيل أن تقدري على التعايش مع واقعي، حالك أفضل مني بكثير.

كانت أحلامي دائمًا قرنفلية الرائحة ولازالت،

أحلم أن أكون سمكة، دائمًا أنظر إلى الأسماك بشغف شديد، بهوس شديد، كنت أتمنى أن أكون حرًا كما الأسماك، أن أذهب عبر البحار والمحيطات بلا قيود تذكر، أن يصبح البحر

وطني، أن أنتمي إليه، تعجبني ألوان الأسماك، تبهرني تفاصيلها الجميلة وتأخذني لعالم ما تحت الماء حيث الدموع تختفي في أعماق البحر بلا قيود وبلا أشواق.

- حتى الأسماك يمكن أن يقيدها البشر يا صغيري.

ابتسم ابتسامة شخص فاقد للأمل:

- أتعرفين لما أحب الخيال؟

أجبته مذهولة:

لا أعلم!

- الخيال يا جميلتي مدينة تستطيعين فيها تلبية كل ما تريدين أينما تريدين ووقتما تريدين.

قلت له:

الخنساء عباس الشهاب

- عندما يضيق الواقع نلجأ للخيال، لكنه يظل خيالًا.

- لكن يظل الخيال أجمل من واقعكم صدِّقيني.

قلت باستغراب:

- ربما يكون كلامك صحيحًا، فنحن جالسون على أرجوحة وأقدامنا لا هي تلامس الأرض،

ولا هذه الأرجوحة تأخذنا وسط الغيوم، لا واقعنا يقبلنا ولا خيالنا يرفضنا، لا نؤمن بقمة التعاسة ولا نحس بقمة الألم.

رد:

- وصفك هذا أذهلني وجعلني أقف عاجزًا عن الرد.

ثم تمتم:

- وأنا في طريقي على ضفاف النهر رأيت وردة الأقحوان، كانت تبدو بريئة وجميلة، غير أنها كانت وحيدة، خفت أنا اقتلعها معي فتشعر بالغربة إلى جانب الوحدة فتصبح شبيهة بي، تلك الوردة تشبهك، خفتُ أن أصطحبكِ معي فتصبحين مثلي.

ما أصعب التعايش معي هنا!

لا يوجد حولي هنا غير الحزن والأسى، كل الأشياء لا تؤمن بالفرح والسعادة، حزينة كل الأصوات هنا، صامتة كلها إلا أصوات الوجع تتكلم بطريقة مخيفة جدًا، ما عاد بإمكان أي كمان أن يعزف لحن السعادة والفرح، مظلمة هنا الأماكن موحشة حد الغربة، الطيور هنا ما عادت زقزقاتها تسمع، اعتزلت ولن تغرد للمحبين يومًا، وإنما حل محلَّها نعيق الغربان!

يستعمرها الوجع والألم، ويحيط بها خريف يبدو لي أنه أزلي، في كل مكان ذكرى تستيقظ، لأبدأ بالتخبُّط كطير مجروح يحتضر.

فأي أمل سيحيه؟

و أي طريق سيمشي فيه؟

أرادت أن تمسح عنه غبار الصمت وتزيل رواسب وحدته الفظيعة، قررت أن تتحدى جميع ما أمامها، أن تدخل مدينة لا تعترف إلا بموت الأحاسيس وبرود المشاعر، والأحاسيس لا تأمن جانب الحب ولا تجد له طريقًا آمنًا.

فهل تتحمل تلك الفتاة كل ما سيواجهها؟

أم أنها من أول ضربة ستقع أسيرة وتظل كذلك للأبد؟

****

خلف الجدران أصبحت أحب الخيال، يذكرني بأحلام اليقظة فهناك التقيته دائمًا، الليلة مظلمة جدًا، لم أعد أميز شيئًا أمامي، ضوء خافت يبدو لي، سكون يخيم على المكان، لم يعد هناك أطفال، لا ظل لهم، لا أحد هنا، لا صوت، لا ألوان موجودة، ولا شمس تشرق، الحزن يمشي هنا عاريًا بخطى هادئة، يدوس على الوجع صمت فظيع يحمل الآلام والخذلان، هذه هي نهاية الطريق بالنسبة لي، لكني لا أدري أي سواد يحيط بها، أمامي توجد أرجوحة تبدو بالية في حديقة مهجورة، تنتظر من يحركها، من يعيد إليها الحياة لتتأرجح يمينا وشمالًا لتعانق السماء وتتطاير فرحة، الطرقات أصبحت تبدو لي قديمة جدًا، ذاكرة شقية هي ذاكرته، رسائل كتبها تنتظر أن تبعث، مبعثرة مشتتة في كل مكان حوله، كل الأمكنة تغير ألوانها الباهتة فترحل جميع الألوان، يندس هو بين أجنحة الحمام البيضاء لعل البياض يغير ما حوله، يتأمل الفرح بين أوجه الحزن، وجهه يفشل في كتمان ما بداخله من حزن، عيونه ملت من انتظار أحبابه وأصابه إرهاق شديد، لقد تعب من التمني، و ملَّ من الانتظار، مازالت ذكريات الماضي تحيط به، بين الطرقات الظلام يتقدم شيئًا فشيئًا ويغرق هو فيه رُويدًا رُويدًا، الضجيج يسرق السكون وهو يبحث عن أحباب ما عادوا موجودين، الظلام يمتد نحوه ببطء يكاد لا يعرف نفسه وسطه، الانتظار يقتله!

في منتصف نومه تستيقظ أحلامه فجأة، يغرق وسط الطرقات ويتسكع كالأطفال حافيًا.

على رأسه قبعة سوداء، باهت الملامح هو، شاحب الوجه، وعلى كتفيه عباءة سوداء طويلة تكسوه من أعلى رأسه إلى أسفل قدميه، ظله الطويل الأسود ينعكس لها بين الزوايا فتراه كلما ظهر ضوء القمر الخافت، يحيط به أيدي الذاكرة وتطبق على أنفاسه لتكتمها، قلبه النقي أصبح أكثر برودة من برد الشتاء نفسه، لم تهدأ دقات نبضه، عقله يشبه كوخًا مهجور لم يعد فيه سوى رائحة أعز أشخاص رحلوا وتركوا له الذكريات وحيدة، هو مكبل دون قيود، مقيد بخيوط الماضي التي تلفه، يناضل للوصول إلى المكان الذي رسمه، أرق قد أصابه فنسي كيف تبدو الألوان الجميلة، يتألم بشدة كلما تذكر ماضيه، تمر الصور كشريط مسرع لا يتوقف فيحن، يريد نسيان ما حل به، وجهه يبدو كطفل خائف، لكن لا يدري من ماذا، يخاف ماضيه، يخشى حاضره، ويهاب مستقبله كثيرًا، زقزقة

العصافير لم تعد تسمع من نافذته وكأنها توقفت عن المجيئ منذ مدة، توقفت عن دق زجاجه بمنقارها، أظن أنها هاجرت هي أيضًا، لم تعد تحتمل برودة المكان فهاجرت باحثة عن الدفء والأمان وتركته ينتظرها كل يوم، ينتظر أن تأتي له برائحتهم عند عودتها، يتنمى لو أنه يحلم، يفتح عينيه ببطء وفجأة يجد أن كل هذا أصبح واقعه وأنه لم يكن يحلم.

يرفع رأسه من بين كفيه وكأن رأسه أصبحت ثقيلة على جسمه، قفز ليعبر إلى الجهة الأخرى لعله يجد ما يريد، ود أن يتجاوز سجنه وأن يتعلق بشيء ما، يصرخ ويتألم ولا ينسى، دومًا يتذكر وكأنه جالس في أعماق مظلمة.

لبس ثوب المسنين بكل آلامه وصعوباته، لبس ثوبًا عمره تسعيني وهو لازال بالعقد العشريني، نسي الابتسامة منذ زمن، خلع عنه أحلامه وأمانيه ليلبس بدوره ثوب الحزن والألم، هناك من أعطاه اسمًا جديدًا لا يلائمه، أحدهم أسكنه هذه المدينة دون أن يتجرأ ويسأله:

أهو راضٍ هنا أم لا؟
أهو سعيد؟

يحاول جاهدًا كل مرة فتح الزنزانة التي صنعها بنفسه لتحرير روحه ورسم طرقات جديدة بريشته المبتدئة بألوان طفل صغير، لكنه لا يستطيع،

لم يعد يستطيع أن يرسوا في أي مكان، كأنه قد ولد وتربى في المجهول!

يسمع صوتًا دافئًا بعيدًا يردد أغنية مع الصدى، لقد كان صوتها:

(لا تكف عن الحلم، حاول وقاوم جميع العواصف فأنت محاربي القوي الصامد، لا تكف عن الحلم وارمي عنك جميع ما يثقلك، دعه يذهب مع الرياح و يطير، واصل طريقك ولا

تنظر إلى الخلف، لا تكف عن الحلم فأنا هنا، دائمًا بجانبك وسأقف معك، ما سر كل هذا؟ ومتى تكتفي؟ وأي ألوان ستبدد هذا الظلام السائد؟).

يسكت ليتأملها وهي تغني، عقله توقف عند صوتها، في أوقات كثيرة نسكت عن الكلام لنتأمل أنفسنا، نصمت لنفهم ذواتنا، نصمت لأنَّ بداخلنا ألم لا نهاية له.

فجأة تمردت على سكوتي:

- يا أنت، تكلم معي ولا تجلس صامتًا هكذا.

رد بغبطة:

- أعشق هذه التركيبة البسيطة يا أنتِ،

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أنا بائع الأحزان، هل من مشتري؟

لم يدعني أجبه، وقال بسرعة:

أعلم الإجابة ....

بضاعتي رُدت إليّ، لا تتعجلي قدوم المجهول، فبعد قدومه قد يصبح مصيرك أنتِ مجهولًا.

كانه يوجه إليّ رسائل عديدة مشفرة

وكأنه يقول لا تقتربي كثيرًا مني فقد أتحول بأي لحظة وأصبح وحشًا!

كلامه كتحذير غير مباشر كان مشفرًا، لكني لم أحاول حله، أردته أن يظل هكذا مبهمًا، لم أفهم أو أنني فهمت وادعيت عكس ذلك، فضلت البقاء معه وأن أساعده على النجاة، عبثًا كان يتكلم معي، فمهما قال لن يستطيع أن يقنعني بتركه وحيدًا.

- أتعلمين أني في بعض الأحيان ينتابني شعور غريب؟

أحيانًا أصعد سيارتي فأشتم رائحة هرمون الأدرنالين تعبق في أطرافي، دمي يصبح كينبوع حار، لا أستطيع التوقف عن الحماسة ما أن أضع يدي على المقود حتى أشعر أن العالم يرجع للخلف، أشعر أن كل الأشياء تمشي ببطء، أقود بسرعة جنونية حتى أتخطى كل الحواجز المادية من حولي، لا أهتم بشيء، أسابق الموت دومًا، حتى الآن كنت الأسرع، أنا الفائز، أعلم أنه سوف يأتي يوم أكون فيه الخاسر ولا أهتم فالحياة حولي ليست مهمة بالقدر الذي ترتسم للآخرين.

ماذا تريدين أن تعرفي أكثر؟

حين أسير في هذه الطرقات المظلمة أفكر بالموت كثيرًا،

لا أدري متى سيحدث؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

وأين؟

وكيف؟

وممن تكون نهايتي؟

أخاف أن تكون حياتي القادمة وسط هذا الظلام أيضًا، يبتلعني إلى مكان داخله عميق ولا يعرفه أحد، يغرقني فيه، يأخذني إلى أسفل قاعه هناك، يسجنني مغمض العينين، مكبل اليدين وحدي فأبكي وأنتظر للأبد.

حين أمضي بين القبور هنا أرى أيدٍ كثيرة تمتد منها وتطلب العودة، أيد لأشخاص أعرفهم، لكن كلما اقتربت منها أكثر حاولت سحبي إليها، أرى بين هذه الأيدي يدي، لكن يبقى مصيري مجهولًا.

هذه مدينة لا يوجد فيها حياة إلا للموت، هذه المدينة التي أنا فيها الآن لا تعانق أحدًا إلا وتفنيه، تنظر في عينيه لترى البراءة، عيون تحمل كل الوجع والخذلان وتخفيهما ببراعة الشجعان والباسلين.

يحمل حقيبته التي يضع فيها أحلامه وأمانيه المنسية البعيدة، يتعلق بأمل متلاشٍ كخيط رفيع، أمل يبدو بعيدًا له، لكنه لم يودعه حتى الآن، الحمل بات ثقيلًا على أكتافه جدًا، يجرحوننا بكل بساطة ويبتسمون كأنهم لم يخطئوا بحقنا، يبحث عن أشياء تفوح بعبق الماضي، يريدها أن ترجع، ولكن كيف السبيل؟

كأنه يبحث عن شعرة في كومة قش!

يظل كالأطفال منتظرًا قدوم أحبته، لو واصل هكذا سيتعب وسوف يحتاج لراحة طويلة،

هو من أخبرني يومًا أننا نحلم فقط، فهل أصبح حلمه واقعه؟

يحضر مرتديًا رداءه فيعرفه كل من حوله فور رؤيتهم له، يرمي نفسه أمام الغياب كل مرة وكأنه يعاقبها على شيء لم تقترفه، عاريًا ينام ويفترش ذاكرته، أوجاعه، ماضيه، ويلتحف أحزانه فقط!

أصعب المواقف عندما يتملكنا شعور أن كل شيء انتهى، كلما تمر الذكريات عليّ أستغرب، أحببنا بعضنا كثيرًا ورغم ذلك ضعنا في دوامة، لكن بداخل عقلنا ماتزال تدور نفس الأسئلة:

لماذا انتهى كل شيء؟ وكيف حدث هذا؟

ومتى؟ وبسبب من؟

أنا؟ هو؟

أم العيون التي كانت تراقبنا خلسة بحسد وحقد؟

خطأ من كان؟ وبأي ذنب افترقنا؟

أسئلة كثيرة تراودني ولا أجد جوابًا واحدًا يجعلني أقتنع، هذا هو الشيء الذي يقتل الإنسان ويطرحه كجثة هامدة، إنها الفوضى الداخلية وتشتت الأفكار والمشاعر، إن كثرة الضجيج في عقولنا يجعلنا نعيش مبعثرين نبحث عن أجوبة.

الحياة كل شيء فيها مثل المسرحية، سرعان ما ينتهي كل شيء وتسدل الستارة الأخيرة على العرض.

هل سأظل دائمًا أشتاق له دون أن يعلم؟

حاولت كثيرًا دفن مشاعري، حاولت السكوت، لكني ما عدت قادرة على ذلك، أعتذر كثيرًا من نفسي، أعتذر فأنا لم أستطع أن أوازن بين شعوري ومواساتي لمعاناة ذلك الغريب كنت أظن أن كل شيء انتهى وأني ففقدت السيطرة على التوافق بين حزني ونفسي، ظننت كثيرًا أني أصبحت مجردة من جميع المشاعر، ظننت أني لم أعد أحس بأي شيء، بالنسبة لي كنت أظن أني لن أسلك نفس الطرقات مجددًا ونسيت أن الظن هو أكبر خطأ سيواجهه الإنسان، ونسيت أيضا أن بعض الظن إثم لأن مشاعري بدأت بالاستيقاظ فجأة بألمها وحزنها، بوجعها وأساها، والأهم من كل هذا وذاك مشاعر الحب التي كانت راكدة ومع أول ريح تمردت لتعلن عليّ العصيان، منذ لمحت وجهك كنت طوال تلك المدة أكذب على نفسي، لا يمكننا نسيان من أحببنا يومًا، من أسكنا قلبنا وروحنا، كشخص قلبه توقف عن النبض لتوقظه صدمة كهربائية، تؤلمه تلك الصدمة كثيرًا، لكنها ترجع قلبه للحياة فجأة مرة أخرى.

لقد أرجعتني من جديد لحبه، كان يكفي نظرة منه، كان يكفي ابتسامة تعلو وجهه، أو كلمة توقظ كل الذكريات وجميع الأحاسيس مرة واحدة، ألهذه الدرجة أحببته؟

ألهذه الدرجة أحببتك يا أنت أخبرني؟

بخطى خفيفة خافتة عدت أرقب من تلك النافذة الشوارع، الظلام، الموت، والسكون، أجوب بعيني السوداويتين المكان، أجلس بهدوء وخوف شديدين أمامه، صمت يخيم على المكان، كيف له أن يعيش هكذا؟ لا شيء يرى في هذا المكان سوى ضوء خافت لا أدري من أين أتى، أمن انعكاس القمر المختفي وراء الغيوم؟ أم من شمعة تكاد تطفأ من أنفاسه.

بجانبي هو جالس يرتجف، وزفير أنفاسه يقول كل ما لم يستطع قوله لي، مع كل زفرة يخرج حزن كبير وقصة موجعة وألم لا ينسى وذكرى تستوطنه، يخيل لي أنه بعيد عني جدًا رغم قربه مني، خطواته كعزف مسن على قيثار مهجور في هدوء منتصف الليل، لا الليل يسمعه ولا أحد يصفق له، يتنهد، يشتد البرد، ضباب يتصاعد من فمه، أضع رأسي على الحائط شاردة الفكر وحيدة مع شريط ذكرياتنا.

أيام مضت، ضحكات علت، لهو ومرح لا يخلو من مشاجراتنا وخناقتنا الدائمة والمتكررة،

صور تعود ولحظات تمر على البال، فأين نحن من كل تلك الأوقات؟

وأين هو من نفسه؟

أنتظر بحنين يومًا ربما سيأتي وربما لن يأتي، يمكن أن تكون هذه هي النهاية.

كم أنتِ قاسية أيتها الحياة حين سرقتي من فمها البسمة!

كم أنتِ ظالمة أيتها الحياة حين وأدتي أحلامها أمام عينيها!

نطقتُ فجأة:

- كئيبة أصبحت كلماتك، وحزينة باتت عبارتك جدًا، حديثك يجرح قلبي وصمتك يقتلني، لما كل هذا الحزن والألم البادي على وجهك؟

ظننت أني أستطيع أن ألون عالمك بألوان الطيف، لماذا اخترت الحزن بديلًا للفرح؟

لقد بددت الأمل باليأس وجعلت الأسود يطغى على الأبيض، لما لم تظل صامدًا؟

لما؟ أخبرني!

- للأسف يا صغيري، أظنني ركضت وراء أوهام وأماني رسمتها في مخيلتي.

- كلما اقتربت خطواتي منك قليلًا لأسندك قبل أن تقع ابتعدت أنت كثيرًا، كلما اقتربت منك أنا أكثر ازددت أنت بعدًا أكثر فأكثر!

كلما لونت شوارعك بألوان الطيف ونثرت الورد على الأرصفة وجدتك تتشبث باللون الأسود أكثر فأكثر!

لقد تعبت من المقاومة.

أنا أقاوم، لكني أظن أنَّ قواي خارت.

ألواني بدأت تصبح باهتة وتفقد بريقها مع كل هطول للمطر، فما بالك يا أنت؟ أخبرني!

تنهد طويلًا ثم نطق:

- الصمت لغتي التي أنسجها دائمًا، أولم تسمعي الأشياء الرائعة التي تقال وأنا صامت؟

أنا أعشق اللون الأسود، إنه صديقي الذي لا يفارقني.

يا طفلتي، عباراتي مشوكة ومشكوك بها، إن نظرتي لها نظرة بعيدة ستقولين جميل وإن لامستها مثلي ستجرحين.
قلت وعلامات اليأس بادية على وجهي:

- تغيرنا وكأننا لم نعرف بعضنا أبدًا!

دعنا نجرب لمرة، دعنا لمرة واحدة نترك أرواحنا تتعانق، ونضم اختلافاتنا ونزيحها من طريقنا، دع أيدينا تمسك بعضها، دعنا نسبح في أحلامنا لنطفو على الواقع.

إلى متى سنظل معلقين هكذا؟

لا واقع يعترف بنا، ولا وهم يغلق أبوابه في وجهنا، الشمس كلما أشرقت تبدو لي وكأنها تضحك، وكلما أتى موعد الغروب بدا لي نحيبها جليًا، لكنها تظل على أمل أن تطل في الغد من جديد، انعدام الأمل هو شيء مؤلم، يمزقك، يطرحك أرضًا مثل جثة. هناك رغبة بالابتعاد عن الجميع، رائحة الذكريات تفوح هنا وهناك، كل منا يحمل في داخله ذكرى لا ترحل ولا تموت، كل منا لديه في قلبه جرح لا يطيب بل يصارع بداخله، كل يوم تنتظر نهايتها، ولا زالت تنتظر اليوم الذي تغمض فيه عينيها ولا تفتحهما لتغادر هذه الدنيا بهدوء.

قال بصوت كالهمس وكأنه يتمتم:

- كانت جميلة، عندما أنظر في خدها يرتسم لي ضوء القمر، وعندما تبتسم يلوح في محيطها نور الشمس الوضاء، كانت بسيطة جدًا، كانت رقيقة جدًا، كانت بريئة جدًا، كانت هادئة جدًا، كانت تهتم بي جدًا، كانت جزءًا مني جدًا، كانت ويا ليتها ظلت لأنها تركت فيّ فراغًا كبيرًا جدًا.

في هذا التوقيت يخرج العقل عن التوقيت، عصفورتي وحيدة بدوني، يبدو أنها خائفة وحزينة، الآن لا أعلم ما قد حلَّ بها ؟، كل ما يخيفني أن يكون قد تسبب بهذا الألم شخص آخر؛ لأنه الآن يخرجني من إطار القوقعة إلى واجهة الوحش.

أتمنى لو كان جسدي وقاءً لجسدها، وروحي فداءً لروحها، أخاف أن يلامس شعرها خدها فيجرح خدها، نعم، هي رقيقة لدرجة تفوق المعتاد يا سادة.

تلك الليلة التي رصدها القمر حيث تراقصت زهرة النرجس مع زهرة الاوركيدا بحب عميق وبحركات مذهلة تتلامس خلالها الأطراف الباردة بقوة وحنان ودفء، كانت الثورة المسيطرة في تلك اللحظة هي ثورة الأنفاس والموسيقى ودقات قلوب لعاشقين في جزيرة الأمواج الذهبية، لاتزال تلك الليلة عالقة في ذاكرتي كأنها الآن، تتسارع الخطى في مخيلتي مثل شريط عرض سينمائي قارب على الانتهاء.

أميرتي، ما تزالين تتربعين على عرش يحال أن يتم الجدال فيه؛ لأنك القضية الوحيدة التي انتصرت فيها بشرف.

كل يوم أطرز من شعاع الشمس ثوبًا لحبيبتي البعيدة، وما أن يأتي الليل حتى أنام على أمل الانتهاء منه، ومنذ عمر طويل لم يكتمل، يبدو أنه سيكون كفني، لكني سعيد جدًا.

ابتسم ابتسامة باردة، وردد لمريد البرغوثي بحزن:

أتعلمين أنك جميلة !
كوطن محرر وأنا متعب كوطن محتل؟

ثم واصل:

قررت أن أهديكِ وردة سوداء، هل ستقبلين يا نرجسية؟

- الوردة رائعة، لكن النرجسية ليست صفة جميلة.

أتعلم لماذا؟
وبدأت أشرح له:

النرجسية بمختلف معانيها تعني حب الذات والأنانية حيث أنّ الإنسان النرجسي يرى نفسه الأفضل في كل شيء مهما كان ويضع الآخرين بمكانة أقل منه، أتت كلمة النرجسية من أسطورة يونانية، كان هناك شخص يدعى نارسيس وكان جميلًا جدًا؛ وبسبب جماله عشق نفسه، وعندما رأى انعكاس وجهه الجميل في الماء اعتاد أن يجلس عندها مطوّلًا متأملًا جمال وجهه و ذات يوم أراد أن يلمس جماله، قفز في البحيرة التي فغرق وظهرت مكان جلوسه وردة، وكانت هذه الوردة هي النرجس، لكن المرأة النرجسية أيضًا لدي قصة عنها.

قال لي:

- النرجسية تحتمل معنين سيدتي، الأول: نرجسية الطباع وحب الذات والأنانية، والآخر: هو التفرد في الجمال مع الظلم للعاشقين.

أعتقد أنني قرأت القصة من قبل والمعنى كما عرفته، لقد أجدتِ.

قلت:

- أي أن النرجسية في الحالتين ليست بصفة جميلة لأن الشخص النرجسي بفترة من الفترات سيفقد السيطرة على أنانيته وتصرفاته.

رد بثقة عالية:

- النرجسية صفة سيئة، لكن دائمًا يحتويها أشخاص جميلو الملامح، والجمال عبارة عن هبة إلهية.

طالعته بنظرات متأملة في وجهه وكأني أتفحصه، هو يقصد نفسه، يتحدث عن جماله، فلطالما كان يفتخر بذلك:

- نعم، الجمال صفة إلهية يمنحها الله لمن يشاء من الأشخاص، وأنا متفقة معك على هذا الكلام لان النرجسي صفاته مميزة فهو عاشق لنفسه، ولديه الثقة العالية بالنفس، يؤمن تمامًا بأنّه فريد من نوعه ونادر.

رد بكل هدوء:

- أتذكر هذه الكلمة النرجسية في زمن مضى، تناقشنا أنا وشخص من الأشخاص بسبب هذه الكلمة، هههه ضحك ثم أكمل كلامه موضحًا موضع أزمة هذه الكلمة.

قلت بأسلوب غير مقتنع:

- أما أنا فلا أحبها أصلًا، النرجسي أناني، والشخص الأناني يفكر بنفسه فقط، لكني تساءلت بداخلي، لماذا نعتني بالنرجسية؟

وهل صحيح أنني نرجسية، ولكني لا أدري؟

- تعلمين يا جميلتي أنه يقال بأن الحب أعمى.

- ربما، وأنت نفسك قلتها (يُقال).

وكأنني لم أصدق كلامه، أو حاولت أن أسحب منه كلامًا آخر كأن يقول لي (أنا لم أنسكِ طيلة الأيام الماضية) أو (اشتقت لكِ) أو (افتقدتكِ) أو أن وقته كان صعبًا بدوني، لكن شخصًا مثله لم ولن يعترف بأي شيء، لن يتعرى أمامي ليخبرني بما يدور في عقله.

تبسم ثم دخل بدوامة سكوت كعادته.

لا يجاري رجلًا نرجسيًا في غروره وكبريائه القاتل سوى أنثى تكون واثقة من نفسها، أنثى لا تهتم لأحد، نرجسية أكثر منه، تحب شخصيتها أكثر من الجميع.

أحيانًا كان يحاول أن يخفي نفسه بفرح كاذب، ولكنه كان يزف ألم الحزن الباذخ قائلًا:

- لم أعد أستطيع أن أميز الألوان أبدًا، من أين لي بريشة جديدة ترسم ألوان الفرحة والسعادة فقط؟

أركض خلف ظلي الذي يسبق نهايتي، كل حلم وأمنية لي سرقوا.

دائمًا أتساءل:

أين نهايتي؟ ومتى؟ وفي أي مكان ستكون؟

أحيانًا عند منتصف ليلة مظلمة يظهر القمر ليعكس ضوئه الخافت على بقايا حطامي فتنار الطرقات بأحزاني.

حتى الأزهار البيضاء تلونت بسواد خيالها، هربت لأعيش على كوكب خالٍ من البشر،

لكن الظاهر أن حتى هذا الكوكب بات يرفضني.

حدث أن سَألتِ شخصًا مرَّة عن هويتي بينما كان يجلس بجانبي !

أنا... لم أعد أعرف حتى من أنا!
وأنت يا هذا،
أتعلم من أكون؟ أخبرني أرجوك!

صمت ولم يجبني.

لا تصمت، أخبرني!

طال صمته فقلت:
هل أنت أيضًا لا تعلم من أنا؟
أنا لا أعرف من أكون ولا مصيري ما هو .،

على خطى مجهول
الحسناء عباس الشهاب

لا أعرف إلى أين أنا ذاهب وما هي وجهتي القادمة، أيعقل هذا؟

أيعقل أنهم رموا بي في منفى بعيد؟

حياته أصبحت كمن ألقوا به في منفى بعيد وحيدًا، عندما نبتعد فنحن نعرف دائمًا من ماذا نهرب، لكن ما لا نعرفه إلى أين نذهب وعن ماذا نبحث،

ربما للحياة وجهة نظر أخرى لا تشبه أحلامنا وأماننا.

في هذه المدينة البائسة التي دخلتها، كل شيء بثمن إلا الحزن والألم؛ الألم هنا لا يباع بل يهدى مجانًا، كل شيء هنا حزين، ذبلت الأزهار، وغادرت الفراشات أرضها لأن بائعة الورود هنا لم تعد موجودة، رحلت وحل مكانها الجلاد وبائع المشانق.

لماذا يا ترى عندما نكون حزينين يصبح الكلُّ ضدَّنا فجأة؟

وكأنهم اتفقوا على كسرنا مرة واحدة، وكأنَّ حزننا هذا لا يكْفي.

في هذه المدينة ....

التي يملأها الوداع والخيانة، الأحزان والألآم، تجلس هذه الفتاة التي استوطنت هنا رغم أن الجميع يتحاشى أن يظل، فهي لم تعد تعي أي شيء لأنها أحبت أن تخرج ذلك الغريب ذات يوم منها فعلقت هي الثانية بين جدرانها، فهل ستتفتح الأزهار من جديد؟

هل تزورها الفراشات؟

وجع كبير بداخلها، الحياة لم ترحمها فهي صغيرة جدًا على كل معاني الحزن، إنها هي، هي من سكنت هذا المكان ودخلت إليه بإرادتها، لكن يبقى السؤال:

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

هل الفتاة تعودت على الحزن؟

أم أن الحزن تعود عليها ولم يعد يقوى على فراقها؟

حالتها كحالة طفل يتيم كذبوا عليه يومًا بأن أمه ستعود، فصدقهم وظل ينتظر إذ إنه لا يدري أن الموتى لا يعودون، الموتى لا يعودون يا صغيري، فمزق أملك برؤيتها مجددًا.

الغائبون لا يعودون يا فتاتي، فاقطعي الأمل وغادري هذه المدينة ولا تنتظري كل يوم.

إن أسوء ما قد يواجهنا هو تحطم الأماني والأحلام، عندما يصبح الطريق معوجًا لا يقود في الأغلب إلا لنفس طريق العودة، ويكون بين الخطوة والأخرى مئة حاجز، وجميع الموانع تحول دون الوصول إلى مبتغانا، كلما تقدمت خطوة رجعت للخلف عشرًا، تصبح الدقائق خطوطها ثقيلة ونصطدم بمتاهات الطريق.

من يمسح عن قلبها الحزن والألم؟ من يخرجها من الخوف والقلق؟

من يأخذ بيدها إلى أرض السلام والأمان؟ يا ترى متى سنضحك من قلبنا؟

****

أحدهم...

سلم هذه الطفلة لذئاب الوجع تمزقها بعد أن ضيعت كل الطرق.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أحدهم...

أمسكها وأخذ بيدها كصغيرة وتركها بمنتصف الطريق، لا هي تعرف أين صارت،

ولا هي تعرف طريق العودة.

الفراق موجع جدًا، لقد ضاعت في طرقات هذه المدينة،

صرخت بأعلى صوتها متسائلة:

أخبرني، من أنا بالنسبة لك؟

ومن أكون؟

في الانتظار أبحث عنك وأبحث فلا أجد سوى رائحة غيابك تملأ كل الأمكنة.

هذه المدينة ....

لا يوجد بين زواياها الحب فلا معنى له هنا، المدينة لا تقبله ولا تعترف به، الحب ممنوع، شيء عدم قتل قبل أن يولد، وكل من جرب ذلك لم يلقَ الفراق والغياب فهنا لا يلتقي الأحبة إلا بين فجوات الأحلام والخيال خلسة وفي الزوايا والطرقات المظلمة، ذات مرة فتحت الفتاة قلبها للحب وجعلته يستوطن روحها فأتى بعض الحاقدين الحاسدين وغدروا بالحب أمام عينيها.

البشر هنا أصبحوا مجرد دمى قديمة، من الخارج يبدون جميلين، لكن داخلهم عميق ويحمل من الغموض كثيرًا، داخلهم مظلم ومخيف، داخلهم ليس نقيًا أو صافيًا بل نتن وعفن ومملوء بالغبار، داخلهم أصبح فراغًا كبيرًا لأنهم لا شيء.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

لمحت في وجهه الجميل تعبًا أو ضيقًا، لا أدري ما به بالتحديد، لكن هناك شيء ألم به.

سألته:

- لماذا أنت متعب؟

أهم البشر من ضايقوك؟

- من غيرهم يا صغيرتي دنس العالم ونشر الكره والسواد داخله؟

- لا تهتم لهم!

- يا صغيرتي عالمي ليس كعالمك، فأنتِ يمكن أن تصادفي شريرًا واحدًا والبقية أناس عاديون؛ أما أنا فالأشرار كثر يملؤون عالمي كله، هكذا فرضتهم عليّ الظروف والأشياء من حولي.

- هؤلاء ليسوا بشرًا، هم فقط أشباه بشر، أزحهم من أمامك وواصل طريقك، كم تمنيت لو أني دخلت عالمك المظلم لأرسم الألوان الجميلة، لأعزف الفرح، لأزيل من طريقك هؤلاء الخونة، أقتلعهم كأشواك، أرميهم كنباتات ضارة لا تستحق العيش معك، حتى تعيش بسلام، أتمنى لو أني أستطيع أن أشتري سعادتك حتى ولو كانت بأغلى الأثمان، أتمنى لو أني وضعت يدي الصغيرتين وحميتك منهم، لكن هل تكفي يداي لهم؟ أنا أريدك أن ترتاح، اترك كل شيء وراء ظهرك، لم يتأخر الوقت، اترك القرار لقلبك حتى يستريح من هذا الصخب، اترك كل شيء وعش بسلام، لا تدع أحدًا يطمس هويتك ويمحو تاريخك ومعتقداتك عبثًا، لكن لا بقاء لثائر مدى الحياة يا عزيزي.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أذكر أنه قال ذات يوم:

- أنا أحسدك، أنتِ تمتلكين مواهبًا رائعة؛ أما أنا فليس لي مواهب شرد بتفكيره بعيدا ثم قال مسترسلا :

ها قد تذكرت القنص، ولكن أين الموهبة في هذا؟

لدي موهبة في القتال والرياضة، عندي موهبة في الهروب أيضًا، وأهم موهبة أني لا أنام جيدًا.

- ايي الرياضة والقتال هاي أهم موهبة، والقنص كمان موهبة، لكن ليش ما تنام منيح؟

- خليها على ربك!

كمان عندي موهبة، لكن هذي الموهبة بكرهها، من وأنا صغير شاطر فيها، مستحيل تلاقي طفل مثلي، وكبرت وكبرت موهبتي معي وتعبتني للآن.

ثم واصل:

- هههه على فكرة أنا مكَّار، أنا تدربت إن بأصعب المواقف أتصرف بسرعة وخفة.

- اي حلو كثير هيك لازم تكون بطل.
- تقدري تسميها ذكاء وشوية حظ وشوية تعب بالتدريب حتى نصنع شخص مقتدر.
فجأة نطقت:

- يقولون أن الدنيا لا يوجد فيها راحة، هكذا خلقنا للشقاء، الإنسان يرتاح فقط لما يموت، لكن متى نموت؟
- لا أعرف، كل ما أعرفه لساتنا عايشين.
أجبته و الأسى بادي على وجهي:
- ما الفرق بينا وبين الميتين غير أننا نتنفس؟
- إذا هيك العيشة ....
آخ بس آخ رأسي سينفجر.
- سلامتك! ماذا حدث لك فجأة؟
- لا يوجد شيء، فقط بعض الأشياء المعقدة قليلًا بحياتي.
- أنت متى بترتاح؟
- يمكن وقت أطلع من عباءتي السوداء سأرتاح، ظلي ادعي لي.
- بدعيلك أنا بدون ما تطلب هذا الشيء، ستطلع منها بيوم وكل شيء يصبح أفضل، كن متأكد من هذا الشيء.
- تخيلي تكوني في ضيقة وفوق هذا مشاكل!
- صعبة كثير بدون ما راح أتخيل، حاسة بموقفك بس ظلك عم تصلي وتدعي انت كمان، والله ما يضيعلك تعب.
- يا الله!
- والشخص الذي أعرفه قادر يتجاوز أي شيء بقدرة الله، هو بنظري مثال للرجل الصامد القوي الذي لا يهاب المشاكل.
أنت مثل البطل الخارق الذي في الرسوم المتحركة (باتمان و زورو)، الكل يعتمد عليك ويراك بطل.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- صدِّقيني لكن أحيانًا حتَّى المحارب تلزمه اسْتِراحة.
- سترتاح بإذن الله راحة لن يكون بعدها تعب، أنا على أمل كبير انو تصير أفضل، وبيوم ستتذكر كلامي وتضحك على هاته الأيام.
- يااااااااارب، كلامك محفز، دائمًا ما يسندني قبل أن أسقط.

ودون سابق إنذار رحل ذلك الغريب صاحب العباءة السوداء، صاحب الظل الطويل البعيد عني وتركني وحيدة.

من بعدك كل الأماكن أصبحت موحشة ومظلمة تفوح منها رائحتك الغريبة المميزة، تصرفاتك، كلامك، كل شيء فيك، بات الحنين يشدني إليك، كأنني حجزت وسط ذاكرتي وذكرياتك وأغلقت الأبواب عليّ داخلها.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

بت أتساءل كثيرًا عنك: أين أنت؟

ماذا تفعل الآن؟

قرأت مرة أنه أثناء الغياب لا يجب أن نعيد قراءة كلام من نحب، لا يجب أن نفعل شيئًا سوى أن نلهي أنفسنا، لكني ما عدت أقدر التحكم في داخلي، أحس كأنك بعيد، لكأنك صرت بعيدًا منذ مئات السنين، لكأن جدرانًا كثيرة وضعت بيني وبينك.

أرى أن كل الطرقات متشابهة ولم تعد تأخذني لمكان بل ترجعني إلى نفس البداية، كل شيء صار قاسيًا معي، أحدهم أخذ الفرح والسرور مني وألبسني لباس الحزن والصمت.

وهنت أجنحتي وأنا أحاول الطيران

من يضمد لي أجنحتي؟ فأنا أريد التحليق من جديد.

وأنت ....

أين أنت ؟

الظلام حالك، سكون مخيف يسيطر على المكان، هنا عالم يخلو من الرحمة، وأنا أرتجف كعصفور خائف أعين القناصين ترقبه بحذر وكل البنادق موجهة صوب رأسه.

لماذا تخليت عني ؟

لماذا تركتني هنا وحيدة ؟

تلك الأماكن التي كانت تضج بالضحكات والسرور اليوم صارت حزينة كئيبة، أصبحت موحشة لا يسمع فيها غير صوت نحيبك بين الممرات، تصرخ ولا تسمع غير صدى صوت يجيبها: ارحلي، ارحلي بلا عودة!

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

تعكس الأماكن ما بداخلها، فروحها مظلمة تواقة لرشفة حنان، تعيسة هي تبحث عن الحب في أعماقها.

عندما نتألم نضعف، لكن رغم كل ذلك نحاول كتمان كل شيء خوفًا من شفقة الأخرين أو من نظرات الشتيمة.

نخبئ أعيننا حتى لا يقرأ أحد ما وراءها، نتجاهل الرد على بعض الأسئلة، نتلافى الأجوبة،

نصطنع كلامًا، نحاول الضحك بصوت هستيري، نبتسم رغمًا عنا فقط لنثبت لهم أننا بخير، يصبح الصمت سيد كلامنا، يسيطر علينا لنصبح كقنبلة موقوتة ما إن يحين وقتها حتى تنفجر فتودي بنا لا بهم، تبعثرنا في لحظة نقرر فيها التمرد لنقمع الصمت المستبد بنا.

إنه أكبر خطأ ارتكبناه بحق ذاتنا، كان علينا أن نتكلم حتى نتعب، أن نفضفض ونقول كل ما بداخلنا، أن نبوح به للورق، أن ندونه ونرسمه كشخبطات وخربشات، أن نصرخ بأعلى صوتنا حتى و لو كنا وحدنا، أن نزيح الثقل عن صدرنا لنرتاح، المهم أن نخفف الحمل بداخلنا.

لطالما كنت مختلفة كثيرًا أو هكذا كنت أبدو، لكني فجأة ما عدت أعرف نفسي، أصبحت فتاة يعجز كل من حولي عن فهمي، فقدت شعوري، ذبلت ابتسامتي، جرح قلبي، وتوقف عقلي عن التفكير، فجأة لم أعد أحس، وكأن مشاعري تبلدت وأصابها الجمود مرة واحدة، قلبي أصبح ينبض ببطء شديد، بت أخاف الحب، لكني لما عدت أهاب الموت من أجله والتضحية بحياتي، ما عدت أعرف نفسي حين تنعكس صورتي في المرآة، بدا لي وكأنه أصبح لي شخص آخر في داخلي لا أعرفه.

أبدو قوية من الخارج كقلعة محصنة، وضعيفة من الداخل كبيت من قش.

شجاعة لدرجة الاستعداد للركض بكل الشوارع بحثًا عنك، وجبانة تهاب نور الشمس.
جريئة حد التمرد وخائفة من انعكاس ظلي، شامخة كجبل ومكسورة كجناح عصفور سقط من أعلى القمة.

جميلة حد الفتنة وبشعة بعيون متورمة، أنف أحمر، هالات سوداء، ووجه ذابل كزهرة لم تسقى منذ زمن.

فرحة حد الرقص بجنون هستيري وحزينة حد تشييع نفسي وإقامة الحداد عليها.

طيبة لدرجة البكاء على قطة صغيرة جرحت رجلها وسيئة حد إهمال نفسي.

أأنا ميتة؟ أم ما زلت على قيد الحياة؟

ومن أنا ؟

أصبحت كل شيء ولا شيء!

أنا ما عدت أعرف من أنا.

من تقف أمامي؟

غريبة جدًا عني تلك التي أرى انعكاس صورتها أمامي.
هل هناك من ينقذني من نفسي؟

لعل هناك أحد يسحبني من كل هذا الحزن والألم فقد سئمت الانتظار.

أحتاج لشخص يمد يده لي ويخرجني من هذا المستنقع الذي وقعت فيه، أنجدوني! ألا يوجد أحد يسمعني؟
ألا يوجد شخص يمر من جانب نافذتي ليبعد ستائر عقلي ويتسلل النور داخل قلبي؟
إلى متى سأظل عالقة هنا؟
لا شيء هنا، لا أحد، لا موت، لم يعد فيّ حياة ،معلقة أنا، أنا بقايا فتاة منهارة، لا شيء جديد هنا سوى جسد منهك أهلكته الأيام بقساوة ظروفها.

فراغ فظيع يسكنني، يلفني من كل الجوانب، ذلك الفراغ المخيف الذي يمنعني من مواجهة حتى نفسي سينتهي بنهاية أحلام تعدت حدود الخيال، أحلام رفضها مستنقع الحقيقة.

لم يعد بي نَفسٌ، حتى الكتابة أصبحت كَئيبةً، أنا كئيبة لدرجة كبيرة.

أصابتني لعنة القسوة على نفسي فأصبحت تلك الفتاة التي لم تعد تهتم ولا تبالي بأي شيء.

لو كانت الحياة مجرد رسمة، كنت رسمت بريشتي كل شيء من حولنا جميلا، الأسود أحوّله للأبيض، لون الدنيا الحزين أجعله فرحًا، ولكن للأسف يظل هذا تمنيًا وحلمًا مستحيل الوقوع.

لا تبني أحلاما كهذه يا نفسي، فالسقوط من فوقها سيكون قاسيًا.

في كل مرة كنت أتشاجر معه يراودني نفس السؤال في داخلي:

من أنا ؟

من أنا بالنسبة لك؟

أحتار ولا أجد إجابة فهو إلى الآن لم يشفِ غليلي ويخبرني أو أظن أنه يعاكسني، يجب أن يراني وأنا غاضبة منه فأجيب نفسي عن سؤالي وآخذ كلماته وأفعاله في هذه اللحظة كشيء يقنعني بالإجابة التي اخترتها بنفسي حتى ولو كانت غريبة.

أبكي كثيرًا، أتوعد وأهدد أني لن أعود لمحادثته، أشكوه لدميتي، تتعبني كثرة الاستنتاجات في رأسي والنتيجة التي حصلت عليها، سأقول له بالأخير أنني لا شيء بالنسبة له!

كم مرة أخبرته بهذا الكلام ولم يكن ليريحني بل يعجبه وضع عصبيتي فيضحك ويحاول صبَّ البنزين على النار، وإذا أدرك أنني بآخر مراحل الغضب يقول لي: "مكانتكِ كبيرة جدًا في قلبي يا صغيرتي، وما في القلب سيظل بالقلب"، أقتنع، أصمت، وأعود طبيعية شيئًا فشيئًا، لكن من أول شجار أو تصرف يصدر منه ينقلب كل شيء!

ثم أعود لأسأله من جديد: من أنا يا ترى ؟

ليقول:

- ليتكِ تعلمين أني أنا مثلما أنا أرحل أنا أو أظل فإني أبقى أنا، لكن أنتِ مجنونة!

اليوم يبدو لي مظلمًا، لم أغادر غرفتي لأيام، تارة أحاول كتابة أي شيء، أتذكر، أتناسى، وتارة أخرى أرسم، لكن شيء ما بداخلي يجعلني أشعر بالتعب.

أتعرفون شيئًا عن الانكسار؟

هو أن يتخلى عنك شخص وأنت في أمس الحاجة إليه، أن يتركك تتخبط لحالك.

هل تعرفون شيئًا عن الصدمة؟

كأن تتلقى ضربة قاتلة وتلتفت لتصدم بأن من الفاعل أعز الناس وأقرب من أسكنتهم قلبك.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

هل تعرفون معنى الضياع؟

أي أن تكون جالسًا لحالك وفجأة تجد نفسك غصت بالأرض، غصت ولا تقدر على النهوض مجددًا، شيء ما يسحبك إلى الأسفل، لا تقدر على التعبير عن حزنك أو مجاراة ألمك.

ترى أن كل الأشياء ضاعت من يدك أمام عينيك، فقدت كل شيء دون أية مقاومة.

هل تعرفون معنى التبلد؟

أن تصبح بلا مشاعر، باردًا، هادئًا كهدوء الموتى، دون أحاسيس وكأن قلبك مات لم يبقى لك سوى نبضات، لم أعد أبالي بأي أحد، لم أعد أهتم بمشاعري، صرت إنسانة مملة، أصبحت أفكر بكل ما مررت به بعمري الذي يركض بسرعة البرق، أصبحت تقلقني الأحلام والأماني التي بنيتها ولم تتحقق بعد، وأتعبني جدًا طول الطريق الذي أسير فيه،

فكل الطرق أمامي ممتدة إلى المجهول، أسقط من شدة التعب متهالكة على ركبتي حزينة، أبحث عن هدوء بروحي، تشوشني الأسئلة في داخل رأسي، كلام لا يفهمه أحد سواي.

لليال طويلة نسيت الكتابة، كل شيء حولي يشعرني أنني وحيدة ككل يوم، لكني أظل على أمل أن هناك مفاجأة ستحدث تبكيني فرحًا فأبتسم.

لأيام متواصلة انتظرته ولم يصل مع قطارات الغائبين، مرمية أنا على الأرصفة غارقة في انتظاري الأبدي، ها أنا أنتظر مع كل قاطرة تأتي، لكني لا أجدك.

أجلس فوق الكراسي، أستمع للخطوات القادمة باحثة بينهم بأعيني عنه، عن وقع أقدام ذلك الغائب، أتطلع ليد تسحبني، تربت على كتفي، تقول لي: (يا صغيرتي) أو (يا جميلتي، ها قد عدت من جديد).

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أي شوق هذا الذي يشدني إليك ويجعلني أنتظرك بلهفة كل يوم؟

هو يدرك جيدًا ألا أحد يمكنه سد فراغ خلفه شخص مثله،

ولا أحد سيتفهم حاجتي للعزلة بعده، إنه يدرك تمامًا أنني أحبه جدًا، لكن أين هو الآن؟.

نوم عميق ....

كعادتي ينال مني التعب والإرهاق النفسي فأستسلم وأسلم أموري وأرتمي على سريري مثل الأموات لا حراك ولا حس.

كل يوم أخلد إلى النوم مثقلة بالأوجاع والآلام، ولا أحد من حولي يكترث أو يأبه لما يجري معي، كل يوم أبكي حتى تجف دموعي في عيني، مرّ جدًا أن تخلد لفراشك وبداخلك وجع يفوق حدود المدينة، وجع ينتزع روحك كل ليلة مثل شوكة عالقة في حلقك.

أريد الصراخ بأعلى صوتي وبكل ما أوتيتُ من قوة لأرتاح ويهدأ داخلي، لكني لا أستطيع وكأن أحدهم يضع يديه على فمي بقوة.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

آه يا قلبي آه، كم تحملت ولازلت إلى الآن تتحمل الغريب، إني أسأل نفسي:
إلى متى ستصبر؟
إلى متى ستظل تعشق؟
إلى متى ستبقى تراقب من بعيد؟
إلى متى ستقف صامتًا كعادتك؟
كل يوم أمضي إلى سريري مشتاقة، أحن إليك، أفتقدك.
مخذولة أنا من الحب، من العشق، منهم، ومن نفسي الحزينة.
بداخلي ألم لا أجد له تبريرًا، ليغادرني هذا الألم أيضًا، ليتركني وحيدة، إني أتخبط، أتوجع، فلم يعد هناك داعٍ لتواجد أحد في حياتي.

أخلد إلى ذلك السرير البائس المظلم البارد الموحش بعد أن أنهكتني الذكريات، لكني اليوم مخنوقة أكثر، أحس أني سأختنق بلحظة ما، كل المشاعر اختلطت داخلي ولم أعد أعرف طريقي، أنام محملة بكلام لم يسمعه أحد مني أو أني لم أستطيع قوله والبوح به.

محملة بأماني قيد الانتظار لم تمل، وأحلام رسمت في ليالٍ حالكة الظلمة لعلها تضيئها، محملة بخيبات كبيرة، بكاء، غصة، آلام، كل شيء موجع داخلي، أشتاق إليك اليوم، أشتاق إليك كثيرًا.

ليس لدي أي حل سوى الجلوس والبكاء، البكاء حتى يجف دمعي وينفجر رأسي من الصداع، ثم أنام على أمل أن أفيق على كلمة منك، كلمة وحيدة تثبت أنك افتقدتني أنت أيضًا، كلمة تخرجني من الظلام، تكون لي جسرًا ممتدًا للأمان والسلام مع نفسي.

إلى متى ستظل هكذا تشهد على انهياري بصمت من بعيد؟

إلى متى سأحتضن سريري منتظرة بفارغ الصبر أن يتسلل الفرح إليّ من فجوة صغيرة تركتها تحت لحافي؟
متى يأتي العصفور لنافذتي حاملًا رسائل منك انتظرت وصولها منذ زمن؟

مقهورة أنا لأنه لا تصلني أخبارك ولا رسائلك، أفتقدك حد الوجع والخذلان، أنا بدونك ضعيفة، أفتقد نصائحك وصراخك، رغم أنانيتك معي إلا أني أعشقك، أحبك حبًا ليس له حدود ولا تسألني لماذا، لكن أخبرني، كيف سيمر كل هذا؟

مشتتة أنا، ضائعة كجثة مرمية على قارعة طريق، أخلد لنومي، أحتضن سريري البارد الموحش لعله يواسيني ويخفف من قهري وألمي و حزني ووجعي، ولكن دون جدوى، أنام والدموع قد بللت وسادتي، أخلد للنوم مع ذكرياتي، أمالي وآلامي، جروحي وأوجاعي، ولا أحد يعي ما يجري معي، سريري الذي أصبح قبري أنتحب عليه كل ليلة، أأبكي نفسي؟
أم أبكيه؟ إلى متى سيظل يتحملني؟

كل ليلة أمارس نفس طقوس الألم والحزن دون أن يسمعني أو يراني أحد.

كل ليلة أتظاهر بإغماض عيني وأجلس على أرصفة الأماني أنتظر بائع النوم لعله يمر من جانبي ويهبني القليل.

- يا سيدة قلبي الجميلة، في هذه الحياة نصنع حياتنا بأيدينا، أنا أعلم ما تخفيه كواليس الحياة، أعلم اللون الآخر للوجوه من خلال حياتي التي عشتها، لقد خابرت البشر واختبرتهم ولم أزل، أعلم أن البشر ضعفاء يصنعون حولهم الرهبة، يصنعون حولهم القوة، لكن جوهرهم الحقيقي يخفي خوفهم الدفين، يخفي ملامحهم البائسة، تبًا لكم يا معشر البشر، تبًا لكم!

- أعلم أن الحياة أنهكتك يا صغيري.

في أحيان كثيرة كنت أتساءل: أي طاقة تحمّل لديه؟

لكني لم أظهر هذا حتى لا يحبط، وكي لا يفقد الأمل المتبقي له أسقيه كل يوم بدلًا عنه.

خائفة أنا عليه كطفلي، أحميه كحمامة تبسط جناحيها لتدفئة صغارها.

- أتعلمين؟

دائمًا كانت تجذبني قصص رجال الشرطة ورواياتهم، لكن أن تتعايش معها، أن تصوغها أنت بيديك فهذا أمر آخر.

القصة الآن أصبحت تختلف فأنت لم تعد أنت و ذلك الصبي لم يعد كذلك، الآن القصة تكتب بطريقتها هي، لا بطريقتك أنت، القصة تتطور لتكون في النهاية رواية ملامحها تبدو غير واقعية، حزينة، مؤلمة، لأن الشرطي والمجرم أصبحا في قفصٍ واحد، في ضفة واحدة، الرواية تسرد بطريقة مختلفة عن الجمهور، لا أحد سيتوقع النهاية، أكاد أجزم ألا أحد سيحضرها، ستظل القضية خفية، كتب لها أن تظل خفية.

قصتي كتب لها أن تظل هكذا.

كالأحلام أتى وكالأحلام غاب عني لأبقى وحدي.

كم أضفى على حياتي العديد من المزايا، هو نفسه كان أول وأجمل هدية غالية تأتيني مغلفة من القدر، لكن سرعان ما سرقها الغياب مني.

كل ليلة أكتب عن مشاعري، أصمت حينما يسألني أحدهم عنه، لا أدري ماذا أقول وكأن الحروف هربت من فمي، أصبحت مثل الأطفال وكأنني رجعت للخلف سنينًا كثيرة،

رجعت للقرون الماضية وقتما كانوا يتبادلون الرسائل الكتابية بين العشاق، لطالما كنت الحالمة والعاشقة لطريقة حبهم، أبهرتني بل أذهلتني إذ كانت نقية صافية تخلوا من كل الملوثات والطفيليات التي أصابت المحبين والحب نفسه، في عصرنا هذا الحب لا يتجاوز مشوارًا أو مشوارين على طريق سريع أو وجبة في مطعم، بدلًا من كل هذا كان يكفيني أن أستيقظ ذات صباح لأجد وردة ليست بالحمراء بل بيضاء أو حتى صفراء بنفسجية، وردة فقط مرسلة إليّ منه، وموقعة باسم ذلك المجهول، المهم أن تصلني منه!

رغم علمي بطول المسافات التي تفصلنا، ورغم علمي أنها ستذبل في منتصف الطريق قبل أن تصل، لكن لا يهمني، المهم أنه يتبقى فيها قليل من رائحتها وعطر يديه وأن تكون مرفقة بكلمة تغنيني عن كل الهدايا لأخبئها في كتاب كنت خبأت فيه جميع الرسائل السابقة التي كتبتها له من قبل ولم أبعثها حتى الآن لأني لا أعرف العنوان.

حتى الهدايا أصبحت في زمننا من يهدي شيئًا أغلى، ألهذه الدرجة أصبح الحب رخيصًا؟ أتذكر المثل الإنجليزي الذي قرأته ذات يوم:

(الحب الذي يتغذى على الهدايا يبقى جائعًا دائمًا).

كلام صحيح لا بل صائب جدًا فأي حب ينشأ على الهدايا الباهظة، الهدايا التي لا تعبر عن الأشخاص الذين أرسلوها، هو حب مؤقت أو مجرد إعجاب، مجرد ترف أصاب

أصحابه، مجرد بعثرة للأموال، من بين كل تلك الهدايا التي يتبادلها المحبين أعشق تلك المميزة الفريدة من نوعها، هدايا غريبة بالنسبة لغيري كالدمية التي أراها بالأفلام القديمة أو، تلك الكرة التي يتساقط في داخلها الثلج محاطة ببيت جميل، أو علبة موسيقى صغيرة كلما فتحتها تظهر لعبة صغيرة تدور وترقص حول نفسها مع موسيقى هادئة، أو فيلم كارتون لو أخبرت رفيقاتي في الدراسة بها لضحكن عليّ، إنهم يرددن دائمًا أنني غريبة ولست من طرازهم ولا أخضع لمعايير ذوقهم، لا بأس بذلك، ربما أبدو لهم موضة قديمة، لكني أعشق ذلك القديم.

أنا لست من عشاق الذهب والماس، تلك الأشياء التي يشتريها أي شخص يملك نقودًا كثيرة ومن بذخه وترفه يريد أن يوزع هدايا من هذا النوع، الهدايا ليست بقيمتها المادية يا من تحبون الهدايا بل بقيمتها المعنوية لأن كل هدية تعبر عن ذوقك، الشخص الذي سيهديك شيئًا تحبه، يلمسه بيده، يصنعه، يضيف له لمسته الجميلة، مجرد كارت بسيط مكتوب عليه كلمات بيديه في زمن الكتابة الإلكترونية، شخص يعلم ماذا تريد، شخص فريد من نوعه جدًا، فنحن نحتاج من يهدينا إحساسًا صادقًا لا مجوهرات، من يلفنا باهتمامه لا بترفه، لكن أين أجد من هو مغرم مثلي بالموضة القديمة؟

كنت دائمًا أطرح على نفسي السؤال هذا: أين ألتقي مثل هذا الشخص الذي يفهمني دون أن أتكلم؟

أرأيتم أحلامي؟

بسيطة جدًا، لكن رغم بساطتها أحس أنها معقدة كثيرًا حيث أن أحدًا لا يفهمني من جيلي.

أرأيتم أحلامي؟.

الواقع ضيق جدًا حد الاصطدام بأحلامي وإيقافها، أصبحنا في زمن يضحكني كثيرًا عندما يتحدثون بكل فخر، عندما يتكلمون عن رجل أمانيهم، عن فارس أحلامهم، لا أظن إلى الآن أن إحداهن ذكرت أن يأتيها على حصان أبيض حاملًا وردة فقط ومشاعره الصادقة وقلبًا مليئًا بالحب، جميعهن يريدن السيارات، البيوت، الأموال، والمناصب، لا أحد يطلب الحب، وبرأي أغلب الفتيات الحب ليس سوى مجرد شيء يمكن أن يتحصلن عليه بهذه الأشياء المادية، أحس أن الكل سرق مني الفرحة والسعادة.

من يسرق حزني الآن؟

كل الآلام والجروح تفتحت في قلبي وأزهرت كأشواك توخزني كلما تحركت.

متى تغادرني الأوجاع للأبد؟

متى أعتزل الحزن وأمضي في طريقي؟

لماذا الكل يتلذذ ويتفنن في كسري وجرحي؟ ألا يحسون؟ أو ليست لديهم مشاعر

وأحاسيس؟ لقد مللت وتعبت، أود الصراخ بأعلى صوتي، أليس في قلوبهم رحمة؟

بت أبحث عن ضوء في هذا العالم المظلم، وأنا خائفة، صرت أبحث عني وعن نفسي فقد تهت، أبحث عن البراءة القديمة، عن الأحلام، عن أيام مضت، عنه بين الذكريات، عن أي أمل، عن بسمة تستمر على الدوام، عن إنسان أعرفه لا يقسو ولا يخون، عن صاحب قلب يسمعني ويفهمني.
كلما كنت تخبرني باقتراب رحيلك منا كلما تجدني أتهرب منه وأصنع درعًا قويًا لا يقدر على اجتيازه، أصنع حججًا وأتذرع بأي شيء، أشتاق إليك حتى وأنت بقربي؛ لأنني أحببتك من بين كل الرجال، أحببتك أنت، واعتبرتهم من بعدك موتى!

حين التقيتك عشقت التمرد على قدري والمشي في طريق الجنون.

كم أتمنى لو يعود بي العمر قليلًا ويرجع بي لسنين مضت، لذكرياتي الجميلة لأكمل لعب (الغميضة) وألبس الدمى ملابسها، وأنا فرحة بقطعة القماش التي أخيطها لها كلباس،

أريد العودة لأوقات سلبت مني، كم أتمنى هذا بشدة!

نمضي، نمشي، نركض، نهرول، نجري، نقفز، لا ندري ما الغد، أو ماذا ينتظرنا هناك، أريد الصراخ لأقول بصوت طفولي بريء وعيون باكية: لا تسرقوا أحلامي أيها الكبار، لا تغتالوا أمانيّ أرجوكم، عالم الكبار مخيف جدًا.

لا أريد أن يتلاشى أملي في هاته الحياة أو تتوارى أحلامي خلف أولئك الحمقى.

كلما أقبل الليل كلما زاد الحنين للماضي ولأوقات الصغر فنصبح يقظين أكثر، لم نعد كما كنا في الماضي، ننام حين نغمض أعيننا لنحلم ببراءة، لا فالقلق أصبح رفيقنا الدائم الذي يجعلنا يقظين ولا يدعنا نغفوا.

ما أحوجنا لمن يفهمنا ويمسح عنا غبار وحدتنا!

ما أحوجنا لقلب مليء بمشاعر صادقة مغلفة بالبراءة والعفوية، يحتوينا بكل ما فينا من ألم وضياع من شوق وحنين من حب وعشق، يضمنا إلى صدره بحنان وطيبة!

حين أبكي تنام خصيلات شعري مجروحة، أنا تلك الفتاة التي كانت تحلم وما زالت، ككل الفتيات في عمرها تسافر أحلامي بعيدًا لحظة وتختفي.

أي شيء يجعلك حزينة؟

فلنغمض أعيننا لنغفوا قليلًا ونأمل أن الغد أفضل إن شاء الله.

نطق ليقول:

- خذيني أيتها المدينة إلى الفرح، واجعليني كطفل صغير يجلس على أرجوحة ولا يعي ما يدور حوله، كل الورود والأزهار التي ذبلت وتساقطت أوراقها بقدوم الخريف أو عرتها الرياح والعواصف ستزهر وتتفتح مع أول يوم من الربيع.

لقد تعبت ومللت، انهزمت وخارت قواي، لكن لي أمل لا يموت، أمل بعيد أتمسك به بكل ما تبقى من قوتي، يدفعني لمواصلة طريقي رغم كل المشقات والصعاب التي واجهتني كمفترس يرقبني أو كقناص يحاول قتلي، في داخلي صوت خافت لا زلت أسمعه كالهمس بعيدًا رغم كل الضجة حولي: (لا تقف هنا، واصل!).
أماني هي كل ما تبقى لي، أحملها كذخيرة للأيام القادمة، لازلت أقاوم وأناضل من أجل أحلامي المرسومة، فالأحلام وجدت لنقدر على العيش، الأحلام وجدت لنتحدى بها الواقع ونحققها.

- أي شيء أصبح يقودني للبكاء، الذكريات باتت تقتلني.
ذاكرته متعبة، يحتاج لذاكرة أخرى بيضاء فارغة، لكن كيف؟.

واصل قائلا :

- وكأنني أستند إلى حائط من قش، أرتكز على شيء مصنوع من سراب يقيني الوقوع كل مرة تأتي الرياح تبعثره من جديد فأسقط وأقوم وفجأة يختفي وأرتمي على الأرض.

يا صغيري:

- هناك مفترق طرق جديد.

-كل الطرقات تبدو لي متشابهة، أقف عند المفترق حائرة، في كل اتجاه سأسلكه حتمًا سأفقد جزءًا مني أو أُفقد كلي داخل هاته الشوارع.
فأين المفر إذًا؟

لم أعد أبالي، لا بأس بالمغامرة.

آه لو تعملين يا جميلتي!

من حولي أشخاص بشعون سيئون تخلوا عن الصدق وفقدوا الإحساس، أعدموا ضمائرهم ولم يعودوا يبالون بمن حولهم، ماتت الإنسانية داخل أنفسهم، يريدون أن ينهشوا من حولهم كذئاب جائعة.

أتناثر وجعًا وألمًا، لكن ما باليد حيلة صدقيني!

الوحدة زنزانة داخل نفسي تأسرني ولازلت أحاول التحرر منها، صراخي وأنيني لم يعد يُسمعا، وحيد أنا، لكني لم أكن وحيدًا بإرادتي، الوحدة فرضت عليّ، أجبرت عليها كمحتل اغتصب أرضًا واستوطنها ورفض تركها.

هذه المدينة التي يقيم فيها الآن تخلو من كل شيء سوى موزع القسوة، ومن يهدي الخداع، شانق الحب، وبائع الموت.
متى تساوت أيام الأسبوع هنا؟

لو أستطيع أن أقف بجانبك دائمًا وأنقذ أحلامك من كل حاسد وحاقد!

ارتح يا صغيري، على قلبك السلام.
المشكلة هي أنني كنت أمسك متشبثة بيده، لكن أظن أن يده كانت مبللة!

هذا ليس اهتمامًا، ليس تعلقًا، ليس خوفًا، ليس فقدًا، ليس قلقًا، ليس حبًا، إنه أكبر من الحب ذاته، هكذا بدأت كلامي، لم أعرف كيف أصفه، ارتبكت كثيرًا.

حينما سألني صديق:

- من هو؟

- أن تسامحه على جميع أخطائه، أن تغفر زلاته مهما كانت، أن تجد له دائمًا عذرًا أو مبررًا لتصرفاته، أن يأتيك مكسورًا فتحتويه، غاضبًا فتمتص غضبه، باكيًا فتمسح دموعه، مشتاقًا لأمه فتواسيه، أن تصبح له قلبًا ثانيًا، أن يكون روحًا تخاف عليها، تحمل همومها وأعبائها داخل صدرك، أن تضحي بسعادتك مقابل أن تترك بسمة على شفتيه في كل مرة يتشاجر معك، أن تعطي وعدًا لنفسك مهددًا أنك لن ترد على اتصالاته ولن تسامحه، لكن مع أول كلمة ينطق بها ينبض قلبك بسرعة، كل يوم يزيد حبه ويكبر رغم كل شيء!

برأيك هل هذا حب؟

أنهيت كلامي فقال صديقي:

- أنت لا تحبينه بل غارقة في حبه!

كان هذا الشخص يلمّح لي دائمًا بأنه معجب بي، لم أشأ أن أتركه يتعلق في بأمل غير موجود فأردت اختصار الطريق وأخبرته أن قلبي أصبح معلقًا بأحدهم.

كنت كل مرة أرفض الخوض في حديثه هذا حتى جاء ذلك اليوم الذي سألني فيه إذا كنت مرتبطة بأحدهم أو واقعة في حبه فأنكرت وأخبرته أن الأمر ليس كما يتوقع، لكن لدي شخص يساوي البشر كلهم بمعزته في قلبي.

- من أين لك أن تعرف أني غارقة في حبه؟

- انتبهي لكلامك جيدًا ستعرفين من أين استنتجت هذا، أنتِ فتاة كل شخص يتمناك.

- كل شخص؟ مشكوك فيها هذه يا صديقي، لكني لا أريد أن يتمناني العالم بل شخص واحد فقط! أأنت متأكد من كلامك هذا؟

- أول ما تعرفت عليكِ أخبرتك أن فيكِ شيئًا غريبًا، كأنه ينقصك شيء.

أتدرين ماذا ينقصك؟

ما ينقصك هو ثقتك الكبيرة بنفسك.

كنت أعتبر هذا الشخص كأخ مع علمي في بادئ الأمر أنه كان يكن لي مشاعرًا لا تمس الأخوة بشيء، لكني حاولت عدم لفت انتباهه وتجاهلت هذا الأمر، كان معجبًا بي لحد كبير حتى أنه قال لي مرة:

- لو جاءك شخص يحبك ويحميك ويقدرك ويحترمك يطلب يدك، هل تقبلين به؟

ذهلت لا بل صدمت من جرأته، كنت أعرف أنه يقصد نفسه رغم أنه لم يصرح بهذا علنًا، لكنني لم أسأله أي سؤال، فضلت عدم لفت انتباهه أني أعلم أنه هو المقصود، صمت لبعض الوقت ثم أجبته دون تردد:

- وقلبي ماذا أفعل به؟ من بعده كل الرجال ماتوا بنظري!

- أفهم من ردك أنك ستنتظرينه لآخر العمر؟ لكن الأمر سيطول صدقيني، سيطول جدًا.

- أعرف كلامك ومتيقنة منه، لكني أحاول أن أكذبه كل يوم، أحاول أن أخرس الصوت القادم من داخلي، لا حل أمامي غير هذا.

أتدري معني أن ترتبط بشخص وقلبك معلق بشخص آخر؟ إن الأمر أشبه بالموت، أنه وضع تصبح فيه ضحية وجلادًا، مظلومًا وظالمًا، تصبح مخطئًا وبريئًا، محبا وخائنًا لأنك كنت تعلم بأنك لن تحب هذا الشخص الذي ارتبطت به،

و الأسوء من هذا أنك تعلم بأن قلبك لن ينسى حبيبه مهما حدث ومع هذا قبلت عرضه، هنا ستبدو مذنبًا؛ أما أن تفكر كل يوم في من سكن روحك- حتى ولو حدث هذا فقط في قلبك- وتستحضر كلامه وتصرفاته أمامك، أن تشتاق له وتفتقده بعدما أعطيت شخصًا آخر وعدًا بالوفاء والإخلاص، هنا ستكون من أخطأ بحق نفسك وأنا لن أدخل في متاهة كهذه أبدًا.

- إذن حافظي على نفسك جيدًا.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

****

كيف تلوم نرجسيته وأنانيته؟

أريد أن أطلب منك طلبًا صغيرًا، كنت أريد أن تنام وتحتضنني بيدك، تحيطني بها وكأنك تحميني من كل شيء، وبكفك الأخرى تمسح على شعري ووجهي، تبعد الخصيلات المتساقطة عليه، تخبرني أن كل الأمور ستكون بخير بإذن الله، تظل تحكي لي حكايات كثيرة وكلما سكتت مثل الطفلة أقول لك أكمل ولا تصمت، أريد أن أسمعك، أن أنام بهدوء ولو لمرة وأستيقظ لأطالع وجهك وأنت نائم كالأطفال، أنت تشبه الملائكة الصغار حينما ينامون أتعلم!

كن لي يومًا أميرًا كهؤلاء الذين في القصص وسأكون لك تلك الحسناء الجميلة.

هناك سقوط ليس بعده نهوض، كورق نثرته الرياح هنا وهناك في أول عاصفة، كشجرة تعرَّت، حزن خيم على ذاتها واجتاح قلبها ووجدانها، أخبرني، متى تتوقف كلَّ هذا ؟

متى تعتزل ؟

متى تغادر؟

كنت أظن أن كل الأمور تتم بسهولة دون وعي مني أو إدراك، إننا عندما نختار طريقًا ملغمًا أو نذهب في طريق مع علم بخطورة ما سيواجهنا- لأننا لم نعد نكترث بحياتنا أو لم يعد لدينا شيء نخسره فنرمي بأنفسنا في وسط المجهول- لن نرجع منه بنفس السهولة التي دخلناه بها.

فكيف كنت أطلب منه اعتزال كل ما حوله بسهولة والمجيئ إليّ؟

متعب هو منهك ،فما تراه فاعل؟

حائرة أنا عاجزة كمشلول لا أدري كيف أتصرف، كان عليّ عندما اخترت البقاء بجانبه، عندما فضلت عدم الرحيل والتمسك بيده جيدًا، عندما قررت الجلوس وانتظار المجهول مثله، أن أتحمل كل ما سيحدث رغم صعوبته، أن أنسى أني رقيقة وحساسة، أن أتغاضى عن بعض الأمور، إذا ما كان يهمني حقًا أن يظل ذلك الإنسان الطيب ذو الروح الجميلة مقاومًا صامدًا وألا تتمكن منه الظروف.

رغم سوء كل ما حوله يظل كنقطة بيضاء وسط السواد، لم تلمسه أيديهم الملوثة لتأخذ براءته، وسيظل هكذا دومًا.

أتدري يا محاربي القوي أنك تبدو غريبًا لهم؟

أنت شخص غامض ناجح، جميل ذكي، موهوب متفرد بأسلوبك، مميز عن غيرك، لكن لن يروقهم هذا أبدًا، سيحاولون بكل جهدهم أن تصبح شبيهًا لهم، سيحاولون سحبك معهم إلى المستنقع بشد طرف سروالك دون تركه، لن يملوا ولن يتعبوا من هذا، أكبر خطأ كنت قد ارتكبته بحقهم هو تميزك و نجاحك!

هم لن يغفروا لك هذا حتى ينجحوا بشدك إلى قاع سوادهم لتغرق شيئًا فشيئًا في مستنقعهم الذي يفيض بالكذب والخيانة، بالحقد والسواد، لا شيء يرى هناك عدا الندم الذي سيلفونه كحبل على أكتافك، طبعًا سيوقعونك ذات مرة لينجحوا هم، لكنك لن ترضى بواقعهم، في كل مرة تسقط فيها ستنهض من جديد، في كل مرة يكسرون يدًا ستجبرها الأخرى لتشفى وتصبح حرًا، لتبتعد عنهم واصل التحرك ولا تتوقف، لا تنظر إلى الخلف، دعهم هناك وامضِ في طريقك فأنت طيب جميل، أبيض نقي، طاهر مختلف عن البقية.

أجابني بصوت مبحوح:

- أنت لازلت طفلة صغيرة، طفلة تتجمع الفراشات حولك، أنت نقية كالأطفال، براءتك وعفويتك ....

أنا رجل لا أستحقك، أنا كمن تمسك بزهرة رقيقة أثناء وقوعه، ما زلت هناك في الماضي أعيش، أترنح كعقرب ساعة يذهب ويعود، الزمن توقف عندي، أنا كساعة معطلة ولم تعد تمشي، لا أدري لماذا!

كافة الأماكن تصمت وتلتزم السكون في حضرة الماضي المخيف، لو أتوقف هنا صدِّقيني سأَمُوت!

سأصبح مجرَّد شَخصٍ منسي.

أتدرين أن الحب كالمشي على حافة هاوية دون إدراك ؟

نعم فالحب هو تلك الرغبة التي تقودنا للمشي على الأطراف، لكنني لن أترك نفسي لهذه الهاوية.

أغمض عيني بكل ما تبقى لي من قوة جيدًا كي لا أرى الآمال المستحيلة البعيدة كسراب لا أستطيع الإمساك بها.

يجعلني الليل حزينًا مع قدومه كل مرة حيث تستيقظ ذكرياتي في كل زاوية حولي ببيتي، بيتي الذي أصبح حزينًا مثلي.

شعور بشع يراودني لا أقدر على وصفه، لكني لا أنسى هذا الشعور، لا أنساه أبدًا.

أنا لم أتعمد الأذى لأحد، لقد أخبرتهم فقط بواقعي فتهيأ لهم أنه الجحيم بعينه.

لأيام انتابني حزن عميق وصمت فظيع، كانوا عندما يحادثونني يسألونني:

- كيف حالكِ؟

- هل أنت بخير؟

وكأنهم يختصرون الأحاديث بيننا، فأرد دائمًا: الحمد لله على كل حال.

لم يجرؤ أحدهم حتى هذه اللحظة أن يسألني:

- هل تشعرين بالحنين لأحدهم؟

- ما بال نظراتكِ أصبحت حزينة؟

- ما سبب هذا السكون الذي أصابكِ فجأة؟

نجلس في أغلب الأحيان وحدنا، أصبحنا نحب الوحدة كثيرًا.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أين هم؟

لا أدري!

نغمض أعيننا عندما نحزن حتى لا نبكي، نقاوم الدموع كثيرًا.

- لماذا يا ترى؟

وتطرح الأسئلة ذاتها كل مرة. لربما حتى لا يمر نفس الشريط في مخيلتنا رغم تواجد الكثيرين حولي إلا أنني أحتاج بصدق لأحدهم، ذلك القريب مني الذي كان يسأل عني، ليس لمجرد السؤال فقط بل كان يعني خلف هذا الكثير، فعندما يسألني:

- كيف حالكِ؟

أجيبه:

- بخير، الحمد لله على كل حال.

- أعلم أنكِ بخير، لكن كيف أنتِ؟ أخبريني عن أحوالك.

كأنه يقول لي: كاذبة أنتِ، أعلم أنكِ تكذبين.

أحتاجه بشدة، ذلك الذي يخبرني أنه يسمعني ويقول:

- تحدثي، قلبي فارغ اليوم، أنا كلي معك لأسمعك.

أجيبه:

- لكنني سأزيد همومك ومشاكلك، يكفيك ما أنت فيه ولا ينقصك ما أنا فيه أيضًا.

على حصى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- آه يا صغيرتي آه!

أنا هنا، فلتحكِ إذًا.

أسئلة كثيرة ....

الآن في هذا اليوم، في هذه الساعة،

في هذه الدقيقة وبنفس الثانية، رأسي مشوش مملوء بأسئلة كثيرة سيستفرغها

قريبًا لأنني ما عدت أحتملها، أريد إجابات لها.

أسئلة كثيرة تموج داخلي رغم أنني أبدو هادئة من الخارج، يحدث أن نشتاق لأحدهم، لغائب، لغريب، لغامض، لمجهول، لبعيد، لشخص يعني لنا الحياة، نجلس وحيدين، نترقب

رجوعه، ننتظره بلهفة، يتباطأ الوقت في الغياب وكأنه يعاقبنا على الانتظار الممل، و تدور في رأسنا الكثير من الأسئلة التي تبعثرنا وتجعلنا حائرين مشتتين، ما عساه يفعل الآن يا ترى؟

أنت يا من غبت عني، أجبني!
كيف حالك؟
طمئني عن صحتك، أجبني فقط!
كيف حالك الآن في تلك المدينة المظلمة؟

هل وصلت الضفة الأخرى بأمان؟

كيف تقضي أيامك مع الغياب؟
ألا زال فصل الخريف ذاك لم يغادر سماءك؟
هل تلبس جيدًا؟ قيل لي أن الطقس بارد جدا و مثلج هناك.
كيف تمضي أوقاتك هناك؟ هل أنت بخير ؟
هل تأكل جيدًا؟ هل تنام بهدوء؟
أيزعجك أحد؟ هل تفتقدني؟

أما أنا فأقول لك بصوت مبحوح يرتجف خائف:

أنا مشتاقة لك، حزينة من بعدك،
وحيدة بدونك، أفتقدك بشدة،
فقط كن بخير لأجلي،
لأني سأكون وقتها بأفضل حال.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

في الغياب نعرف قيمة الأشخاص الحقيقية، في الغياب ندرك كم كان يمر الوقت جميلًا معهم،

بعض الأشخاص مميزون جدًا، أرواحهم جميلة وبريئة لذا يجعلونك تنسى هموم الدنيا، يلامسون روحك بكلماتهم، أحتاج بشدة ذلك الشخص فأنا أشعر بالوحدة والغربة بدونه، اعذر لهفتي عليك وأسئلتي الكثيرة يا أنت، وأجبني، ألن تخبرني متى تتحرر؟

متى ترجع؟
أجبني فقط أيها الغريب الغامض، أيها المجهول البعيد جدًا.

هل تسمعني؟ أنا هنا جالسة أنتظرك، فأين أنت الآن؟

- سيدتي لا تسألي، في مدينتي يمنع السؤال، يحرم الكلام، فالطقس في مدينتي مائل إلى البرود قليلًا، إلى الغموض كثيرًا، وهيكل المدينة مصاب بالشلل، لا تسألي عن حالي وعن المطر فالموت أسرع من لمح البصر!

بنفسجية هي سمائي، زرقاء هي سمائك، يحال أن تلامسي المحال، لا تقربي إلى البنفسج، فقد يكون في طياته الموت مبرقع.

عندما نحب يجب أن نكون أوفياء أيضًا، أن نضحي من أجل من أحببنا دائمًا.

حطت فراشة جميلة حزينة على كفي فتذكرت كلامه عن الفراشات وكيف كان يشبهني بهم،
حتى الفراشات أصبحت مخلوقات حزينة بعدك!
فقد رحل الربيع عن المدينة وبدا حزنها جليًا واضحًا.
الفراشات لا تقع كالطيور قتلى مرة واحدة، لكنها تموت ببطء.

بدأت الكتابة بحزن وألم:

لم أعد أستطيع الصمت كثيرًا، شوق كبير في داخلي، أنا متعبة بعض الشيء وصامتة كثيرًا، ضائعة أنا، مشتتة، مبعثرة كقطع زجاج متناثرة، أنا مخذولة وكذلك منكسرة بعض الشيء، أصبح خيالك فقط هو من يرافقني في كل مكان، يؤنس وحدتي، أحكي له، أشكي له، أحادثه عن كل ما يجري معي، ليس لديك أي علم عما حصل لي من بعدك.

قالوا لي:

كل فراق هو لقاء جديد، لكن لو قلت لك ارجع إليَّ، لو قلت لك أني لازلت أحبك فتعال إليّ، لو تعلم مدى اشتياقي لك، لو أخبرتك أني أحتاجك فعُد، فهل سترجع من مكانك ذاك ؟.

يأتي عليّ وقت أبكي فيه كثيرًا كلما لاحت لي صورتك في البال، تأتي لحظة أصبح حزينة ووحيدة ولا أجد من يستمع لي أو يفهمني.

في أوقات عديدة لا أدري ماذا أكتب، أصبحت أكتب لك حينما أكون بحالة سيئة ومزاج معكر، لا أعتقد أنك ستفهم معنى حالي هذه!

يقولون أني لا أحسن أي شيء!

أعترف أني لا أحسن فعل أي شيء أبدًا، لا أحسن اختيار البشر في حياتي، لا أحسن قول مشاعري دون ارتباك، لا أحسن اختيار الأوقات المناسبة أو الطرق المناسبة، لا أحسن إغلاق أبواب الحنين، لا أحسن تلوين ذاكرتي بألوان السعادة، لا أحسن الضحك و أنا حزينة، لا أحسن الكلام و الدموع بعيني، لا أحسن التعبير عما في داخلي، أنا لا أحسن سوى الكذب.

كلما سألني أحدهم:

كيف الحال؟

أجبت: دون تردد بخير.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أتعلم أنا الآن كل شيء عدا أنني بخير!

أنا يائسة، حزينة، قلقة، ساكنة، مخنوقة، هادئة، مصدومة، مضطربة، مخذولة، متعبة، موجوعة، مرهقة، حائرة، تعيسة، غاضبة، محبطة، مقهورة، خائفة، جبانة، متأملة، حية، ميتة.

لدرجة عدم تصديق أن الشمس ستشرق يومًا بين أزقة المدينة، تعيسة أنا متمردة لدرجة القفز من أعلى قمة موجودة بجناح مكسور، واهمة لدرجة انتظار طرْق يدي ذلك الغريب على بابي كل يوم، ويائسة لدرجة أني أصبحت أنتظر الموت كل ليلة. لا أعلم متى سأكف عن الاستيقاظ من نومي مفزوعة بسبب كابوس راودني عن غيابك!

أنا فقط أتألم، ليتك تدرك مرارة خذلان الجميع عندما يديرون ظهرهم لك، ليتك تعرف الوحدة التي تسكنني، ليتك تعلم قسوة كل ما يحدث حولي، ليتك تعلم كيف يتخلى عنك جميع البشر في وقت واحد، وكيف تضيق بك نفسك وكأن الكون بأجمعه أطبق على صدرك فجأة، أين كنت حين أشعلت آخر عود ثقاب كان معي؟

أين كنت حين انطفأ وبقيت في الظلام وحدي خائفة؟

أخبروني أنه مستحيل، لطالما كانوا يقرأون عليّ كلماتهم هذه صباحًا ومساءً، نفس الكلمات تتردد من أفواههم كأسطوانة موسيقى مكررة، تعبوا هم ولم أتعب!

أعلم تمام العلم أن أحلامي بعيدة كمن يحلم بأن يلمس القمر!
أتدري ما معنى أن أحاول الاقتراب منك في خيالي؟

يعني أن أضع ملحًا فوق جراحي حتى أتحمل غيابك القاسي.
أتدري ما معنى أن أحاول الاقتراب منك في أحلامي؟

يعني أن أظل مؤمنة أن لقاءنا سيحدث يومًا ما.

أتدري معنى الاقتراب منك في واقعي؟

أي أن أسير على حافة الموت بكلتا جناحي وأدوس فوق النار، أن أنسى الفرح وأنا في طريقي، أن أتغاضى عن صوت عقلي لأدع قلبي فقط يتكلم، أن أركض خلف خيالك

باحثة عنك.

أتدري معنى كل هذا؟

إني اليوم أدفع ثمن الفرح المؤقت الذي عشته، وخيط الأمل أصبح أضعف من أن يحمل أحلامي و يحميها من الكسر والخذلان.

كان علينا أن نكتب بعض المشاعر، بعض الجروح، بعض الألآم، بعض الذكريات السيئة في ورقة، ندونها كلها ونضعها داخل قارورة محكمة الإغلاق حتى لا يتسرب منها أي إحساس ثم نرميها في البحر فتظل هناك تكابد الأمواج حتى تغوص في الأعماق كسفينة محطمة منسية، أو ترسو في شاطئ آخر بعيد عنا حتى تسقط بيد غريب فيقرأ مشاعرنا، ربما سيضحك لأنه لم يجرب شعور الفقد والألم، وربما ستسقط دمعة من عينيه لتستيقظ ذاكرته التي شهدت نفس الموقف.

كان يجب علينا أن نودع كل الأشياء التي تزعجنا وتقلق راحتنا، نودعها دون رجعة حتى لا نعيد قراءتها فتفتح الجراح من جديد لنتألم وتستيقظ الذاكرة الشقية كل مرة.

نحن لا ننسى مهما حدث ورغم ادعائنا عكس ذلك، فبعض الأشياء تظل عالقة في الذاكرة، لهذا يموت بعضنا حتى يعيش كلنا.

كل إنسان من بيننا لديه أمل، حرب خاضها، خسارة خسرها، ألم تجرعه، وحدة شعر بها، حزن أوجعه، شخص أحبه وتخلى عنه في منتصف الطريق، فقد عزيزًا، كل شخص لديه إنسان قريب منه فقده ولم يستطع توديعه بداخله بأي شكل كان، نحن الآن معذبون.

صمت ثم قال:

- اسمعي كلامي هذا جيدًا، عندما تقرر أن تبحر يجب ألا نتذمر في الطريق لأن بعض القرارات محسومة إما أن تكمل أو تموت.

أظنه كان يقصد أنه أبحر في طريقه دون عودة وعليه أن يستمر لأنه لو حاول التوقف والرجوع فسيموت!

يربكني البعض كثيرًا بسؤالهم دائمًا:

من هو المقصود؟ لمن تكتبين؟

من يكون صاحب هذه العبارات؟ من الجالس خلف تلك العبرات؟

احترت، أأحدثهم عنك؟ أم أبقيك في داخلي؟

أتدرون حتى أنا لا أعلم من هو؟!

كل هذا حدث لمجهول فقط، إنه غامض ليس أكثر، لكن هذا الغامض غيرني بشكل كليً، هز كياني وجعلني أكتب له وأفكر به، ليتكم تعلمون أن كل ما أكتبه يكون لمجهول، أقرأ لمجهول، أرسل لمجهول، أحاكي مجهولًا، أحلم بمجهول، وأتمنى لقاء ذلك المجهول!

لكن جميل أن يخط قلمي كل هذا لمجهول، جميل جدًا، فأنا إلى الآن لم أعرف من هو، عباراتي لا تصفه ولا تنصفه، لقد حدثتهم كثيرًا عنك، عن مجهول قلب الموازين، عن مجهول اجتاحني بقوة، عن شخص طيب وجميل من بين كل الرجال وقعت في حبه، أجل وقعت بحبه!

وحده هو كان من استطاع أن يدخل الحب إلى قلبي، لا أدري لماذا ؟
ربما لأنه مميز وفريد من نوعه، لكنه سيظل أول وآخر رجل سكن قلبي.

أنت أروع ما عرفت، أنت أملي المنثور على المجهول.
فارس أحلامي، رجل آمالي، صاحب قلبي، أميري الوسيم

أحببتك بحق!

تبعثرت ذاكرتي وتشتت كعقد من لؤلؤ انفرط لتتناثر حباته هنا وهناك متساقطة على الأرض حبة حبة محدثة ضجة في المكان حتى تتعب فتتوقف وتصمت.

رغم معرفتي بك إلا أن هناك جانب لك لم أعرفه إلى الآن، كل الأشياء التي أخبرتني بها عنك يومًا كانت صادقة، لكن بقي جانب غامض منك لم أعرفه حتى الآن.

طرحت عليه سؤالًا فجأة:

- ما هو اسمك الحقيقي؟

- أيهما تودين أن تعرفي؟ اسمي الحقيقي؟ أم الآخر الذي عرفتني به عند لقائنا أول مرة؟ أنا أغير اسمي كل فترة، واسمي الحقيقي غريب جدًا ومن الأفضل لكِ ألا تعرفيه، الاسم الذي تعرفينه أطلقته عليّ إحدى البنات، ذات مرة كنت بحديقة فشاهدت بنتًا صغيرة مع أهلها تلعب، كانوا عربًا فلاعبتها قليلًا حتى سألتني عن اسمي فاقتربت من أذنها وهمست لها.

قالت لي:

- اسمك غريب!

فرددت:

- يمكنك أن تناديني مثلما تحبين.

فهمست في أذني به، وهكذا أصبح لي هذا الاسم الذي تعرفينه.

- وبماذا سأناديك إذًا؟

صمت كعادته ولم يجبني.

- هل ستظل طوال الوقت غريبًا بالنسبة إليّ؟

ولما اخترت اسمًا غريبًا كهذا لتطلقه على نفسك؟

- الاسم يرمز لشيء معين في ذاكرتي لا ابوح به، والاسم في الأغلب اسم شخصية مشهورة، من الجميل إن قررتِ البحث.

- على الأقل أخبرني باسمك الموجود في هويتك.

- أنا رجل لا اسم لي ولا هوية حقيقة!
فجأة ودون أي تفكير طرحت عليه أسئلة كثيرة:
- أنا لا أعرف عنك شيئًا!
- هذا أفضل لي ولكِ.
- إلى متى ستظل غامضًا؟
- لا أدري!
ها هو يتركني مجددًا أطرح على نفسي أسئلة لأضع في أخرها علامات تعجب وعلامات استفهام كثيرة دون أن أجد جوابًا واحدًا، يتركني في شتات كعاصفة هبت بمكان ولم تدع سوى بقايا ركام، كان يبدو جميلًا في غموضه عندما يلبس الصمت، أتأمل كلماته التي يخبرني بها في عينيه الجميلتين، لكنه رغم هذا لا يقول أي شيء!
ربما كان من الأفضل ألا أعرف عنه الكثير، ربما كان من الأفضل أن يظل غامضًا.

بعض الأمور لابد أن تبقى مجهولة، فللمجهول جمال باهر ولذة مميزة.
رجل رائع، لا اسم له، لا هوية محددة، لا تاريخ ميلاد يعرف به، هذا ما يجعله منفردًا فقط.

صمت لأقول له بعدها بلحظات:
- أتعلم ماذا سأسميك من اليوم فصاعدا؟
"عابر"، فأنت رجل عابر في حياتي وهذا الاسم يليق بك كثيرًا
احفظه جيدًا أيها الغريب الغامض واحفره على حجر الطريق حتى لا تنساه.
- امممم رائع جدًا، وأنتِ من اليوم فصاعدا سيكون اسمك "أمل".
- لماذا هذا الاسم بالذات؟ أيرمز لشيء معين؟
- كانت لي معلمة روسية اسمها أمل وأشعر أن هذا الاسم يليق بكِ كثيرًا.
صمتت ثم واصلت كلامي متعجبة:
- تأملها قليلًا، أنا وأنت: أمل عابر!

أصبحت واقفة أنا في المنتصف بين براءة الأبيض ودناسة الأسود.
فجأة خطر ببالي سؤال بمنتهى الغباء، ترددت في طرحه على رجل شرقي، لكني بعدها استجمعت:
- هل توجد في حياتك امرأة الآن؟
أو بمعنى آخر كنت أريد أن أقول:
- هل تحب فتاة ما؟
أجاب بالقطع:
- لا، فأنا مرتبط بعملي ارتباطًا وثيقًا، يمكن أن تقولي أن عملي هو حبيبي، تزوجته منذ زمن!
سكت، ولكن قد يكون جوابه هذا مثل رد أي رجل شرقي يتنكر من الأمر في مجتمعنا، حتى لو كان في حياته امرأة سيظل ينكر، لازال الفضول يقتلني، هدأت قليلًا، لكني غصت بمتاهة، حيرة أصابتني ....
كيف لرجل وسيم وجميل مثله لديه جميع المقومات والمغريات أن يكون بدون حب؟
أسئلة كثيرة راودت عقلي، لكني فضلت السكوت طبعًا، سيكون غباءً مني أن أسأله من جديد، أو ربما يظنه استفزازا له!
فماذا أقول؟
هل أسأله لما لم يحب إلى الآن؟ طبعًا سيكون رده عكسيًا، إنه يحب أن يرى عصبيتي وجنوني، صمتت بالنهاية حتى لا أظهر له أنني مهتمة بالموضوع كثيرًا.
ابتسم وكأنه عرف ما يدور في عقلي ثم نطق:
- امممم أنا رجل ليس في حياتي سوى شغلي فقط، ربما كان أهون لكِ أن تسمعي أنه في حياتي نساء كثر، لا تفرحي كثيرًا فإن كان رجل مثلي يتملكه عمله فلا شك أن عمله صعب جدًا، فعندما يكون الشخص حرًا يمكن أن تنجحا وينتج عن علاقتكما شيء، أي ربما يكون لك في يوم من الأيام؛ أما الثاني فلن يكون لكِ مطلقًا لأنه لا يمتلك نفسه، صك ملكيته أصبح منذ زمن بيد عمله.

أكان كلامه اختصارًا لكل ما يدور في ذهني من أسئلة؟ أكان تهربًا منه؟ أم قطع الطريق من البداية ووضع حواجز وموانع؟
يلزمني الكثير لأجاري ذكاءه الحاد، فبجملة واحدة
تمكن أن يجيب عن كل علامات الاستفهام برأسي!

صمتت ثم قلت:
- ما هو عملك؟ ألهذه الدرجة هو مهم بالنسبة لك؟
كل الرجال لديهم عمل، لكن الأمر عادي.
- يا جميلتي عملي صعب جدًا ولن تفهمينه الآن،
عملي هو أكبر قضية لي في حياتي أتهرب منها.

على خطى مجهول

قلت له ممازحة:
- أوه قضية! شيء حلو جدًا، يمكنني أن أدافع عنك فكما تعلم أنا محامية، لكني مبتدئة وأعتقد أنك لن تسلم قضيتك لمبتدئة.

أجابني مندهشًا:
- إذا جئتك يومًا بقضية لي ستكون قضية يسمع بها الشرق والغرب، ستكون أعظم قضية جاءتك لأنني في ذلك الوقت قد أقتل بسبب قضيتي، أنا صندوق أسود واليوم الذي أحضر فيه من أجل قضيتي سأحمل كفني معي.

ضحك ثم أكمل:
- ولما لا؟ حتى لو خسرتِ في الدفاع عني سيتسنى لي رؤيتك ولو مرة وأنا على حقيقتي.
- هههههه، وما المفيد من رؤيتي؟
بداخلي كنت فرحة جدًا ....
فهل يكون هذا دليل على لهفته وشوقه لرؤيتي؟

أم أنها مجرد كلمات قالها لي؟
- هههههه، حتى أسلم على وجهك!
لا يكن فكرك منحرفًا فليست كل أنثى قادرة على أسري والمجيئ بي لرؤيتها بشخصيتي الحقيقية.
ضحكت ساخرة:
- هو مجرد سؤال عادي لا تهتم به.

ومن بعدها لم ألتقه حتى الآن، أخذه مني ذلك العمل، لم أستوعب كلامه وقتها، لكني ما زلت أحبه! إنه رجل بحياته الكثير من المشاكل والأسرار، الكثير من الغموض والغرابة مثل: زورو، وباتمان، سوبرمان، سبيدرمان وغيره من أولئك الأبطال، مازال ذلك الغامض يشدني ويجذبني إليه، أحس وكأنه يشبه أبطال القصص التي قرأتها والأبطال الذين شاهدتهم في الرسوم المتحركة، لكن ما أثار استغرابي هو طبيعة عمله بالضبط، ماذا يعمل؟
على حد معرفتي بوقتنا الراهن فإن الشباب لم يعد يشدهم عمل صعب بل كل همهم عمل يجنون منه ثروة في أقل وقت.
كيف لشاب مثله رغم صغر سنه أن يمتلكه عمله ويجعله مرتبطًا به كأسير؟
لما لا يتحرر منه؟
لماذا لا يتركه ويتخلى عنه ببساطة؟
أهذا ما يبرر حزنه الكبير؟
أهذا سر حبه للوحدة وأنه لا يريد لأي شخص أن يدخل حياته؟
شاب لم يتجاوز عمره 26 سنة، شاب في مقتبل العمر، لكن عمله جعل منه رجلًا ناضجًا في وقت قصير جدًا، لقد ولد هكذا في هذا العالم محملًا بعبء عمله، ربما القدر هو الذي فرض عليه هذا العمل بسبب موهبته الفريدة والمميزة.

- لعلك تعلمين يا جميلتي أن الأناقة الحقيقية الوحيدة هي أناقة العقل، وإذا كنتِ قد حصلتِ على هذا فتوقعي أن يأتي الباقي لاحقًا.

قلت له:

- كلماتك ذكرتني بالفيلسوف سقراط حيث إنه كان في جلسة روحية مع عدد من طلابه يتناقشون حول قضية من القضايا حتى جاء أحدهم، وهو يتبختر في مشيه يزهو بنفسه، فنظر إليه سقراط طويلًا ثم قال جملته الشهيرة التي أصبحت حكمة: (تكلم حتى أراك).

رد عليّ:

- سقراط لا يشق لفصاحته غبار.

- صدقت ومقولته هذه من أروع ما قال، فأنا كذلك لا تهمني لا الوسامة ولا السلطة لأن كل هذه الأمور ستزول عند أول حديث.

على خطى مجهول

- اممم امرأة بعقلية سقراط؟ غريب، ولكن جميل.

الخنساء عباس الشهاب

- ما الغريب بالأمر؟

يوجد حتى امرأة بعقلية هتلر، لكن أنتم الرجال يا سيدي لديكم دائمًا تلك النزعة الشرقية التي تدعي أن المرأة ناقصة عقل!

أعلم أن الدين قد أورد (ناقصة عقل)، لكن الرسول (صل الله عليه وسلم) فسر السبب بأن شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين ولم يشمل جميع الميادين.

رد بأسلوب ساخر:

- ليرتاح شرقكم الكريم سيدتي، عالمي آخر، نقطة صغيرة والأشخاص هم من يحددون ماهيتهم بعقليتهم وإنجازاتهم، لا يوجد حد لشيء مطلق، أي أن نقطة رجل أو امرأة لا تلعب أي دور حقيقي، إنها مجرد شماعة- لا أكثر- لتعليق فشلنا عليها.

فقط الحديث أو الكلام الصادر عن الأشخاص هو ما يمكن أن يعبر عن جوهرهم وعن مكنون أفكارهم بغض النظر عن الجنسية واللون والعقيدة، الكلام أو الحديث إلى الناس يحتاج إلى الثقة بالنفس، فالثقة بالنفس مفتاح مهم للنجاح في جميع العلاقات الإنسانية والاجتماعية سواء بالنسبة للرجل أو المرأة.

- الشرق يا سيدي اسم على مسمى، لا تروقني تصرفاته ولا تفكيره الأعوج.
قال مفاخرًا:
- الشرق تاريخ عظيم وحضارة مدهشة مليئة بروائع لم ولن تشعروا بها ما دمتم على عداوة بتاريخكم.
قلت منددة:
- أنا لست على عداوة مع الشرق ولا أخجل من أصلي، صائب كلامك بأن تاريخنا عظيم وحضارتنا مدهشة، لكن كل ذلك (كان)، وكان فعل ماضي ناقص، غير أن- وللأسف الشديد- الشرقيين يتذكرون فقط الماضي ويفتخرون به غير محاولين أن يبنوا الحاضر حتى يكون لهم مستقبل.

- نعم، هذا هو سبب الفشل يا جميلتي.
لطالما كان يعجبني حديثه:
- أنت تتميز بذكاء حاد.
- ليست المسألة أنني ذكي يا جميلتي؛ وإنما المسألة أنني أقضي وقتًا أطول مع المشاكل.
- أتعلم أنه أصبح من النادر أن تثق بشخص غريب؟، لكنك لا تشبه أحدًا على الإطلاق، ورغم أني لا أعلم عنك إلا القليل، لكني وثقت بك وأصبحت أقرب إليّ من الآخرين.
- يا سيدتي، لا أحد يولد شريرًا، الشيطان نفسه كان مَلَاكًا مطيعًا، لكن أحيانًا لكي نعبر الجحيم يكون المخرج الوحيد هو العبور في عمق النيران!
أحيانًا لنصل إلى المكان الذي نريده يجب أن نمر في وسط الظلام ليبدو لنا النور، أنا سيئ ولا أنكر هذا، لكن أقل شيء أني لا أتسبب بضرر لأحد حولي، ولا أضر الأشخاص لمجرد الضرر.
أنا حقًا سيئ وأعترف بهذا، لكن هناك أشياء تعلمتها منذ صغري، فأنا لا أسمح بأذى أي إنسان، ولا أحب أن أجرح ولو كان الجرح أحيانًا رغمًا عني، يومًا ما جمعتني بكِ معرفة جميلة، لكن قسمًا بربي أنا حتى هذه اللحظة ما فكرت أن أجرحك ولذلك رحلت، ربما

وقتها غضبتي مني و اعتبرت ذلك خطأً كبيرًا، لكن لن يصل أي أحد للحقائق القابعة في قلوبنا لأن ما في قلوبنا احترام وتقدير، وأنت تعلمين هذا جيدًا.
أنا فعلت كل هذا لأني أحببت ألا تتعلقين بوهم، أنا مجرد وهم، لكن وهم لا يجرح أحدًا، ورغم أني بشر والأخطاء تحدث أحيانًا بدون إرادتي، لكن ما بي يكفيني، كلي هموم وكلي جراح، ليس من شخص محدد بل من جميع الناس، ورغم كل ذلك فإني إلى الآن صابر، لهذا أريد أن أبتعد عن كل الناس.
- لا تبتعد، ظل بجانبي.
- جميعكم سوف تتركوني كما فعل من كانوا بحياتي، لكن سأظل على أمل أنك ستبقين.
- سأبقى معك، أعدك سأساندك، لأن الابتعاد ليس حلًا.
أتصدقني يا أنت؟ تملكني رغبة أنا أيضًا أن أبتعد عن الكل لا لشيء فقط لأنني مللت، أفضل شيء عندما تبتعد عن الكل، على الأقل سيشتاقون لك.
أجابني:
- لكن هذا الخيار ليس متاحًا دومًا يا جميلتي.
- برأيي ليس هناك أفضل من الوحدة.
- ستتعبين لو اتخذتِ هذا الخيار وستبكين دمًا.
- أتعلم؟ حتى بحلتك الجديدة هذه، الغريبة عني، المجهولة عن فكري إلا إنني عندما اقتربت منك ليلتها أحسست بشعور غريب يشدني إليك، عرفتك من تنهداتك؟ أم من تمتماتك؟ المهم أني عرفتك لا تسألني كيف أو لماذا.
شعور غريب تملكني، ربما لأنني حين عرفتك لمست داخلك شيئًا فريدًا.
- أتعلمين يا أملي؟ رغم أنني تعبت لإخفاء هويتي عنكِ إلا أني فشلت، فيكِ ذكاء متقد أقوى مني!
- لا يمكن مطلقًا، أنت أذكى!
سكتت لبرهة ثم سألته:
- من كان يهتم بأكلك ويجهزه لك؟
- ليس بالضروري أن يجهزه أحد لي، يقال أن المطاعم عائلة من لا عائلة له ....

كسرني رده أحزنني وندمت على سؤالي كثيرًا.
- لكن الحقيقة أنهم يكذبون!
رد عليّ والحزن يعتصر قلبه، لكن ليس لدي خيار.

بداخل كل منا صندوق أسود عتيق يحتوي على أسرار، نخبئ فيه كل شيء ولا يمكننا أن نخبر أحدًا عنه.

- أنت وحيد، أتعلم هذا؟

- يقولون أيضًا أنني رجل مهجور!

- أنت تبدو قاسيًا، أتعلم لماذا؟

لأنك لم تجد من يسندك ويقف بجانبك، لم تجد الروح التي تفضي لها بكل همومك وكل ما يتعبك.

أحسست بشعور غريب، وصدفة دون أن ينتبه لاحظت شيئًا من كلامه بعثرني حد الوجع، شتتني، آلمني كثيرًا، أتراه أخفى عني هذه المعلومة حتى لا أنظر إليه بعين الشفقة؟ أناني هو، تفكيره محدود جدًا!

كيف له أن يفكر بهذه الطريقة؟

كنت في بعض المرات أتملق عليه أو أحكي معه بنبرة حادة وأجادله وأقول أن حياتي صعبة حتى أنها أصعب من حياته، وحينما يقول: "أنت أحسن مني فأنت تمتلكين عائلة تحتويك"، وهذا يعني الكثير عندما أعلم فجأة وعن طريق الصدفة أن أمه وأخواته لم يعودوا موجودين في هذه الدنيا، كلهم تركوه!

كيف؟ وأين؟ ومتى؟ وبأي طريقة؟

لا أدري، كل ما أعرفه أن الكل أصبح مجرد ذكرى، لهذا كان يبدو حزينًا انطوائيًا، كان دائمًا يقول أن الكل تركه وحيدًا، فهمت الآن مصدر الخوف والقلق الدائم الذي يسكن عينيه، عرفت سر قوله دومًا أن الكل سيتركه عاجلًا أم أجلًا.

أندم بشدة على تصرفي الأحمق، لكن كيف لي أن أعلم وهو لم يحدثني عنهم ولا مرة؟

لقد كنت أعلم أن أمه فقط هي من غادرت الحياة فظننت أن ذلك مبعث تعاسته،

كيف له أن يتحمل كل هذا وحده؟

الحمل الواقع على أكتافه لو وضع على جبل لانحنى من شدة ثقله!

فجأة قلت له :

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- أريد أن أسالك شيئًا؟

- تفضلي ....

- عن أهلك!

- ماذا بهم؟

- منذ قليل تكلمت عنهم بصفة الماضي، هل هذا يعني ....

- يعني ماذا؟

- يعني أنهم ما عادوا موجودين؟

- أريد أن أخبرك شيئًا.

- لا تحكِ أي شيء، سأذهب للصلاة وبعدها إذا رجعت أخبرني القصة بالتفصيل.

- إذا لم أغير رأيي!

- لماذا تغيره؟ أريد أن أعرف.

- هناك حسابات أحسبها للقصة في رأسي لذلك يمكن أن أتراجع، عمومًا فلتذهبي لأن الصلاة أهم من كل الأمور.

- سأرجع، لا تنسى أن تخبرني.

تراجع عن الكلام ليضعني في حيرة كبيرة، لم أسأله للفضول أو لمجرد السؤال، إنه إحساس كان يراودني منذ فترة لأنه يتحاشى دائمًا الحديث في هذا الموضوع، لكن كلامه الأخير معي أكد الإحساس هذا لأنه تكلم عنهم بصفة الغائب الذي لن يعود، آه لو تعلم يا صغري أني قد عرفت!

ودون أن تخبرني شيئًا، دون أن تنطق بكلمة، كان بودي لو أمسكت بيده واحتضنته طويلًا، و همست له: "هنا بيتك، نم بأمان" وقبلت جبينه كالأطفال حتى أشعره بالأمان، أحسست أنه طفل بعمر العامين، خائف، يرتجف، يحتاج لمن يحتضنه، لا يريد أن يصدق ما جرى، ولا يريد التحدث عنه، يحاول إخفاءه حتى تغفو أحزانه.
راعيت شعوره فصمت هو لأسحب كلامي أنا وكأنه لم يثرني فضول حول هذا الموضوع إلى يومنا هذا، لم أود فتح الجرح، تركت كل شيء له، إذا جاء ليخبرني من نفسه سأكون له الأذن الصاغية، والقلب الذي يشعر به ويحنو عليه، اليد التي تمسح عنه الألم وتكفكف دموعه، والصدر الذي يخبأه و يواريه.
ليس من السهل عليه قول هذا الشيء أو الخوض فيه، آه لو كان بالإمكان حتى أن أقول له أن روحي فداء له، وأنه لو تركه الجميع لن أتركه أبدًا وأن أغني له لينام بهدوء الأطفال.

يا مُلكِي أنا و مَلكِي الوسيم و ملاكي البريء و مملكتي الفاتنة.

أصعب شعور ....
أصعب شيء في هذه الحياة أن يراك كل من حولك مصدر قوة، مصدر إلهام لهم، يشكون لك، يبكون على كتفك، يفضفضون بكل همومهم، يلجؤون إليك وقت حاجتهم، وأنت ضعيف هش تتظاهر بالقوة، ترسمها كلوحة، تجعل الابتسامة عنوان وجهك دائمًا، تضحك أمامهم بصوت مرتفع، تعطيهم أملًا، تنصحهم، توبخهم، تجعلهم يعدلون عن فكرة الموت، عن الانتحار، عن التخلي عن أنفسهم، تعزز ثقتهم بذاتهم، تقول لهم أن الدنيا لازالت بخير، طبعًا لازالت بخير، وأن لكل مشكلة حل مهما تفاقمت فلا تيأسوا ولا تقطعوا الأمل،
لكن أنا ....
أنا من يسمعني؟
من يصغى إلى ما في قلبي دون أي تذمر؟
دون أن يوبخني، فقط يسمعني، ثم يخبرني أنَّه سيكون بجانبي في السَّراء والضراء مهما حدث ومهما جرى، أنه لن يتخلى عني، سيقف بجواري دائمًا،
يقول لي: (لا تقلقي!)
أحتاج صدرًا مليئًا بالحنان أسند رأسي عليه فقد تعبت، أحتاج من يمسك يدي ويأخذ بها، أريد أن أقول بل أريد أن أصرخ أني أنا أيضًا ضعيفة كطفلة صغيرة وأريد من يقف جانبي، فهناك أوقات نحزن فيها دون سبب، نغضب من أنفسنا ونحاسبها بقسوة، ليس لشيء فقط لنرتاح قليلًا!

كان دائمًا يحاول دعمي حتى أذكر أنه قال لي مرة:
- تمني جيدًا فهذه المقولات قد أعجبتني جدًّا، ستعلمك الصبر وكيف يصل الإنسان إلى أحلامه بشق طريقه وسط المصاعب.
- هناك سيدة غامضة تقف أعلى الجبل، من هي؟ لا أدري! كل ما تعدني به هو المجد والذهب، إلى هذا الجبل أنا ذاهب.

- ابتعد عن البحث في مناجم الآخرين العامة المُستهلكة المفتوحة للجميع، اهتم بالبحث عن منجمك الخاص إياك أن تفعل شيئًا ما لأنك تشعر فقط أن عليك القيام به، ولأن الجميع يفعلونه، إياك أن تقع في هذا الفخ! لأن هذا معناه أن منجمك الخاص المليء بالذهب سيظل مُغلقًا للأبد.

- أنت هُنا لتتلقى الصفعات والركلات طوال الوقت، هذه قاعدة يجب أن تستعد لها بمنتهى الجدّية و الاهتمام، ستتلقى عشرات الصفعات في مشوارك للنجاح، مئات الطعنات من الخلف، آلاف الركلات العنيفة من الظروف، والمفاجآت غير السارة، والأعداء، والأصدقاء، والساخرين، والكارهين، المُجتمع!

- إياك أن تستسلم، اسمح لنفسك أن تُهزم في جولة واثنين وعشرة وعشرين ومائة ثم انهض في كل مرة بإصرار وأنت تلهث وغارق في الدماء وخض جولة جديدة، الهزيمة لا تعني الاستسلام أبدًا، الهزيمة معناها إمكانية العودة مرة أخرى بخبرات أكبر، وطريق أقصر إلى النصر.

- لا تستسلم أبدًا! أبدًا لا تستسلم، لا تستسلم في مسألة كبيرة أو صغيرة أو تافهة، لا تستسلم إلا لقناعات الشرف والعقلانية.

- وقت الجِد كُن رصينًا مُهتمًا جادًا كأستاذ فيزياء في جامعة بريطانية، وقت التفاوض كُن قاسيًا كالصخرة، تُجيد التمسك بمواقفك مهما كان، وقت الراحة كن كسولًا متراخيًا كفرس نهر لا يكف عن التثاؤب، وقت المرح كُن مُشاغبًا مستمتعًا بالحياة كالإيطاليين، حتى وقت الرومانسية كن شاعرًا كقيس بن المُلوّح وهو يقول شعرًا غير مفهوم يغازل به ليلى العامرّية.

كلمات أعجبتني كثيرًا، لربما تساعدك احفظيها جيدًا فقد اخترتها لكِ يا صغيرتي بعناية فائقة.

كان حلمي بسيطًا، كان بسيطًا جدًا، بيت وسقف يجمعنا
لأفتح الباب وأصرخ بأعلى صوتي: مفاجأة حبيبي!
وأنت قلت لي: أتمني أن تنتظريني دائمًا بنفس اللهفة!

- أتدرين يا جميلتي؟

أحيانًا أدخل بيتي فأحس وكأني أسمع صوت إحداهن قادمًا نحوي:
أين أنت؟ لقد تأخرت.
وكأنه يتفقدني ثم ما يلبث الصوت أن يختفي ويصبح بيتي مهجورًا فارغًا.
كم تمنيت لو أني بيوم من الأيام أفتح باب البيت لأجد شخصًا أمامي يقول لي مفاجأة، يجعلني هذا أشعر بوحدة شديدة وقاسية.
- صدقني لو أني بجانبك الآن لقمت بمفاجأتك يوميًا دون ملل.
- كم أسعدني كلامك يا جميلتي!
كلامه هذا جعلني أتفهم شعوره بالوحدة.

على خطى مجهول
الفنانة عباس الشهاب

****

طيور السنونو التي كانت تمثل البياض في سمائها تلونت بسواد خيالها، أرى الماضي يشدك بقوة ليسحبك نحو القاع، ألا زال الجو باردًا؟

متى ستستعيد نفسك؟

لكن لماذا ارتديت قناعًا؟

ألهذه الدرجة يصعب التعامل معي؟

- أنا لم ألبس يومًا قناعًا، ولا أحب أن أتعامل مَعكَ من وراء الأقنعة.

يمكنني أن أقول لك اليوم:

- أتمنى أن تسقط كل الأقنعة وأن تتكلم، أعرف أنك تخبئ خلف هذا القناع ذلك الإنسان الرائع الطيب، ولن تتغير نظرتي لك أبدًا، ستظل ذلك الشخص المذهل المميز الذي عرفته في الماضي، ولن تشوه صورتك في مخيلتي مهما قالوا عنك عبثًا.

برأيك هل تتنكَّر الشعوب لأوطانها؟

كذلك أنا يا عابري!

ما أريده من الأيام هي أن أمضي و أكمل طريقي على قدمي، أعرف أن الطريق طويل إليك، لكنني لن أتردد.

الخنساء عباس الشهاب

سأسقط ومع كل تعثر سأنهض من جديد، ربما تعبت، لكن رغم ذلك سأواصل في رحلتي إليك المشي، سأجلس بهدوء في رحلتي فهناك موعد غير مرتب، اللقاء بيننا أصبح طويلًا وكأني سأموت قبل أن أصل إليك، أنظر من حولي لأعد المسافات التي بيننا، طريقي مازال بعيدًا وأنا لم أعبر إلا القليل.

سألتُ الفراشات: متى سألقاه؟

وكيف يبدو بدون أقنعة؟

أجابتني إحداهن بصوت خافت ساخر:

- لا تحلمي كثيرًا!

أنت لستِ أكثر من شمس سيحجبها الغيم قريبًا، وهو لم يكن سوى سحب عابرة.

قاسٍ هذا الكلام وموجع حد الألم، ولكنه حقيقي!

- طباعك لم تتغير أبدًا، هدوءك غير طبيعي بالنسبة لي إذ يربكني.

ما زلت تحب الصمت وتتجاهل بعض كلامي، ما زلت تعشق التحدث بعينيك الجميلتين،

وأنا لا أملك ما أقوله لك، سأكتفي بالصمت فقط، ألن تغير من طباعك أبدًا؟

نطق قائلًا:

- أصبح من الضروري أن تتعودي على طباعي، صعب أن أغيرها.

- حسنًا يا صغيري، دعنا نستمع معًا إلى داخلنا، دعنا نتحدث من خلال قلوبنا وأرواحنا، وطالعني بنظراتك الحنونة الدافئة تلك.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- أتعلمين من أنا؟

ومن أكون؟

أنا يا سيدتي اسمي السكون!

إن الحرية ليست صفة مضافة أو خاصية من خواص طبيعتي، إنها تمامًا نسيج وجودي في هذه الحياة.

- أما أنا أتعلم من أكون ؟

أنا الحزينة، أنا المذنبة والبريئة، أنا الحالمة، وهو ذلك الخيال البعيد والحلم المستحيل.

كرسيين هنا ....

على طرف الحديقة جالسة على أحدهما ليخبرني الثَّاني كم أنا وحيدة، أرى الحياة راحلة، لقد أصبحت أنت عالمي، إلى الآن لم أستطع حل غموضك، لكنك جذاب حتى وأنت ترتديه.

لدي إحساس غريب جدًا يسكنني يتملكني، كل شيء هادئ بدونك، حتى الأشياء التي كنت أعشق ممارستها أصبحت غير مرغوبة، الهوايات التي كنت ألجأ إليها في وحدتي، في ضيقتي، قلم الرصاص لم يعد مغريًا لي، الكتب فقد رائحتها الجميلة، حتى القراءة مملة بدونك، كل الأشياء فقدت روعتها، تعال لترى كم هي مملة أيامي من بعدك.

فراغك لا يمكن أن يمتلئ عندي، لربما يخطر ببالك فجأة أن تأتي يومًا لتجلس بجانبي على الكرسي الثاني.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

كريشة ملت من الرسم فأصبحت تتمايل عبثا ....
كنومة طفل حزين لا يدري متى يرجع الموتى أصبحت أنا.
يوم متعب جدًا، فمن يضمد أوجاعي؟
بعضهم كان يستغرب:
كيف لفتاة بهذا العمر أن تتملكها هذه التعاسة الكبيرة؟
ما سببها؟
أصمت أو أتجاهل الإجابة لأن الأسئلة طرحت بحجة الفضول لا بحجة سماع ما في داخلي.
كن دائمًا حذرًا في أسئلتك مع إنسان حزين مجروح، لا تتحرش بذاكرته، لا تستفز أوجاعه فتوقظ فيه تلك الأحاسيس الدفينة التي يحاول أن يتجنبها، فأنت لا تدري متى توقظ حزنه فينكسر من جديد.

فقدت نفسي في شوارع هذه المدينة في اللحظة التي دخل فيها حبك قلبي واستوطنه،

فماذا أفعل؟

أتعلم يا أنت ماذا أتمنى؟

الذهاب إلى قرية صغيرة بعيدة عن الكل، تتنفس الهدوء وتحتضن الوفاء، يغمرها الحب وتفترش الأمان، وبيت خشبي على طرفها، وزهور النرجس تحيط جميع أرجاء المكان، وأطالع السماء حتى أغفو قليلًا وأرتاح.

أتعلم يا أنت ماذا أحتاج؟

قطعة قماش بيضاء صغيرة فقط!

أخيطها كل يوم بيدي و أطرّزها حتى تكبر لتغطيني عند موتي، فأحدهم قد كسرني ولم يعتذر لي، حطم فؤادي ولم يجمع بقايا شتاتي، زرع الآلام في صدري ولم يدعها تموت، أراضي الفرح موجودة أعلم ذلك، ولكني متأكدة أني سأجدها متعبة مخذولة، منهكة مرهقة الجسد والتفكير.

أخبرني!

في هذا الغياب أين أنت حتى آتيك؟

ظل معي ولو لمرة دون غياب.

كنت ولازلت أخاف السباحة وأخشى الغوص في عمق البحر، عندي رهبة من الغرق، منذ صغري أواجه هذه المشكلة لا أستطيع التنفس، كان عليّ أن أظل على الشاطئ آمنة أفضل لي، فأنا ولأول مرة أتمرد وأسبح بهذا العمق الكبير، قررت بلحظة جنون أن أجازف بحياتي وأنت كنت هائجا مثل البحر.

أدركت أني سأغرق، لكني تمسكت بك كأخر لوح خشبي للنجاة، الأمواج سحبت لوحي، استسلمت فجأة ورميت كل شيء، لم أعد أريد أن أصل إلى الشاطئ، لم يعد يغريني ذلك الأمان!

نظرت إلى البحر بلا دافع للتجديف ولا رغبة في النجاة وكأن الغرق أصبح فجأة شيئًا جميلًا، أنا هنا في الأعماق أغوص رويدًا رويدًا، هل تراني؟
إنني أخاف الغرق وحيدة.

الخنساء عباس الشهاب

مشاعر مبعثرة ....

مخيف هذا الوقت جدًا، أصبح هذا الزمن مخيفًا بالنسبة لي، فهو لم يعد يشبه زمن حكايا الأطفال التي عرفتها منذ نعومة أظافري، لا أملك جنية تمسح دموعي لتسحرني فجأة وتهديني عربة على شكل يقطينة، لم يعد هناك أي حذاء زجاجي سيتوجني أميرة ويمنحني لقاء أميري في منتصف ليلة هادئة.

لا تفاحة ستخنقني لتعيدني إلى وعيي قبلة، لا وردة حمراء سيقطفها لي أبي لتجعلني حسناء تقع في يد الأمير، لا ضفدع يحميني لأمنحه قبلتي، لأخلصه من سحر المشعوذة ويغدو أميرًا وسيمًا كما كان من قبل، لست بحسناء نائمة ينتظرها حبيبها دهرا لتستيقظ لا أمراء، لا أحصنة، لا مزارع، لا ضيعات، لا غابات، لا أنهار، لا قصور، لا أكواخ هنا، لكن بداخلي لاتزال هناك طفلة أحافظ عليها جيدا كي لا تموت.

أتذكر عندما عاد وقال:

- كيف حالكِ يا طفلتي ؟

تعجبت قائلة:

- أتدري أن الطفلة بداخلي تحتضر ؟

- لا يا جميلتي، الشيء الذي يوجد داخلنا منذ نعومة أظافرنا لا يمكن له أن يذهب إلا إذا كان شيئًا مصطنعًا.

طفلة أنا وسأظل طفلة، تلك الطفلة التي لازالت تصدق الوعود وتحب الجميع، أمانيها بريئة وأحلامها صغيرة.

كان دائمًا بارعًا في سرد الحجج، يجيد الهرب إلى أي مكان تصل إليه ساقه، يملأ يومه ويختبئ داخل أكاذيبه، لكن الحقيقة كانت تصفعه على وجهه، وفي كل مرة يكون وحده في الظلام.

مؤلم جدًا أن تعيش في الخيال، والموجع أن تستيقظ منه فجأة لتجد كل ما تمنيت أن تعيشه مجرد وهم لا أكثر، فهل سيتحمل قلبه الصغير كل هذا ؟

****

- ألن تخبرني بعد ما السبب وراء تلك الأحزان ؟ ماذا حدث لك حتى أصبحت هكذا ؟
- أسباب كثيرة لا يمكن تعدادها!
- أنا أعرفك من تصرفاتك، أعرف الشخص الذي كان- قبل حتى أن أساله ماذا به- يخبرني من أي شيء هو منزعج.

لم يكن بيننا حواجز، لكن الآن كل شيء تغير.
حاولت أن أجعلك تتكلم وتزيح عن أكتافك بعض الهموم، لكنك ترفض بشدة.
ما يقهرني أننا أصبحنا كالغرباء!
هل تعلم أنك صرت بعيدًا جدًا عني؟
- أنا لست بعيدًا يا جميلتي،
ولكني أحس أن الكل بعيد عني.
أذكر أنه في يوم من الأيام أخذني البحر، كنت صغيرًا وقتها ولم أشعر بجسدي بسبب الشد العضلي، سحبني الموج بعيدًا، ابتعدت عن الناس الذين كانوا يسبحون كثيرًا، كنت أصرخ بصوت لم يسمعه أحد، قواي كلها انهارت ويئست ثم سلمت نفسي للموت!
شعور أن الجميع كانوا حولي ولم يسمعوا صوتي عندما واجهت الغرق وحدي تركوني هو شعور موحش ما زلت أتذكره ومازال يلاحقني، أشعر أن هذه هي الحياة بالضبط!
صرختُ قائلة:
- مجنون! أتحاول تشبيه هذه الحادثة بحياتك الحالية؟
وأن كل من حولك لا أحد فيهم يشعر بك؟
وأنهم سيتخلون عنك في يوم من الأيام؟
أرأيت أنك مخطأ؟
هذه الحادثة تركت أثرًا في نفسك وهذا طبيعي لأنك بشر، لكن لا تتركها تصبح فوبيا وتسيطر على حياتك.
بشعورك هذا ستفقد كل من حولك دون أن تنتبه، فلا تتعامل على أساس هذه الحادثة مع كل أيامك، الشك هو سبب قلق للإنسان، ومستحيل أن يجتمع مع الثقة، دع الوسطية بينهم لأن الباب الذي يدخل منه الشك مرة تخرج منه الثقة دائمًا.
كلما راودك هذا الشعور مجددًا جرب أن تغلق عينيك وتعزل سمعك عن الجميع، ولتنصت بهدوء، ستسمع صوتًا قادمًا من بعيد يقول:
(أنا معك، أنا معك وسأظل دائمًا معك، لا تقلق فلن يستطيع أحد سحبك للأسفل، مد يدك إليّ، لا تدع نفسك للهاوية حتى لا تسقط).

أجلس بين الحلم والخيال كطير محلق في سماء الأوهام، أطير وحيدة إلى وجهة جديدة أجهل مصيرها كطفلة مشردة تتوه بخطوات متعثرة مبعثرة.
سلام على عينيه الجميلتين، عينيه اللتين تشبهان البحر ومازالتا ترسمان الأمل بعد أن استوطن الفقد والغربة داخلهما.
نظر إليّ بتمعن ثم سألني:
- ما بالكِ كئيبة صامتة على غير عادتك؟
- صدقني حتى أنا لا أعرف ما بي!

- إذا اختلطت وضاقت عليك الأمور تذكري هذا الكلام الذي سأخبرك به، إنها رسالة غابرييل ماركيز قبل موته:

"ربما لن أقول كل ما أفكر به، لكني حتمًا سأفكر في كل ما سأقوله، سأمنح الأشياء قيمتها، لا لما تمثله بل لما تعنيه، سأنام قليلًا وأحلم كثيرًا مدركاً أن كل دقيقة نغلق فيها أعيننا تعني خسارة ستين ثانية من النور، سوف أسير فيما يتوقف الآخرون وسأصحو فيما الكل نيام، لو شاء ربي أن يهبني حياة أخرى فسأرتدي ملابس بسيطة وأستلقي على الأرض ليس فقط عاري الجسد وإنما عاري الروح أيضًا.

سأبرهن للناس كم يخطئون عندما يعتقدون أنهم لن يكونوا عشاقًا متى شاخوا دون أن يدروا أنهم يشيخون إذا توقفوا عن العشق، للطفل سوف أعطي الأجنحة، لكنني سأدعه يتعلّم التحليق وحده، والكهول سأعلّمهم أن الموت لا يأتي مع الشيخوخة بل بفعل النسيان.

لقد تعلمت منكم الكثير أيها البشر، تعلمت أن الجميع يريد العيش في قمة الجبل غير مدركين أن سرّ السعادة يكمن في تسلقه، تعلّمت أن المولود الجديد حين يشد على إصبع أبيه للمرّة الأولى فذلك يعني أنه أمسك بها إلى الأبد، تعلّمت أن الإنسان يحق له أن ينظر من فوق إلى الآخر فقط حين يجب أن يساعده على الوقوف، تعلمت منكم أشياء كثيرة، لكن قلة منها ستفيدني لأنها عندما ستوضع في حقيبتي أكون أودع الحياة.

قل دائماً ما تشعر به وافعل ما تفكّر فيه، لو كنت أعرف أنها المرة الأخيرة التي أراكِ فيها نائمة لكنت ضممتك بشدة بين ذراعيّ و لتضرعت إلى الله أن يجعلني حارساً لروحك، لو كنت أعرف أنها الدقائق الأخيرة التي أراكِ فيها لقلت أحبك و لتجاهلت بخجل أنك تعرفين ذلك، هناك دومًا يوم الغد والحياة تمنحنا الفرصة لنفعل الأفضل، لكن لو أنني مخطئ وهذا هو يومي الأخير أحب أن أقول كم أحبك وأنني لن أنساك أبدًا لأن الغد ليس مضمونًا لا للشاب ولا للمسن.

ربما تكون هذه المرة الأخيرة التي ترى فيها أولئك الذين تحبهم فلا تنتظر أكثر وتصرف اليوم لأن الغد قد لا يأتي، ولابد أن تندم على اليوم الذي لم تجد فيه الوقت من أجل ابتسامة أو عناق أو قبلة أو أنك كنت مشغولًا كي ترسل لهم أمنية أخيرة، حافظ بقربك على مَنْ تحب، اهمس في أذنهم أنك بحاجة إليهم، احبهم واعتني بهم وخذ ما يكفي من الوقت لتقول لهم عبارات مثل: أفهمك، سامحني من فضلك، شكرًا!

لن يتذكرك أحد من أجل ما تضمر من أفكار وكل كلمات الحب التي تعرفها؛ فاطلب من الربّ القوة والحكمة للتعبير عنها وبرهن لأصدقائك ولأحبائك كم هم مهمون لديك"

وأنا أقول لك:

- لا تنتظر الوقت المناسب لتقول ما في داخلك فقد لا يأتي أبدًا وتندم.

هكذا كان يمني نفسه أن كل شيء سيتغير يومًا، حاول جاهدًا أن يعيش كغيره من البشر، لكن بكل مرة يقف ترجع الريح وتعصف بجذوره.
ما ذنبه سوى أنه القدر؟
إنه القدر الذي رماه بهذا الطريق وحيدًا فلا أحد بجانبه، قست عليه الأيام كثيرًا فما عاد يبالي بأي شيء، تعود على العيش بدون الأخرين، لكن هذه المرة تختلف؛ فكلما حاول أن يرجع وحيدًا لعزلته أثبتُ له من جديد أني سأكون بجانبه وسأكون معه مهما كانت الظروف التي يمر بها، ربما هذا يجعل ثقته بالبشر تتزن، ربما!

نطق والحزن يعصر قلبه:

- لا أعلم السبب وراء رحيل الأشخاص بسرعة كبيرة ليصبحوا مجرد ذكريات عابرة في طريقنا الشاق والطويل، أتأمل الصور التي أحملها وأتذكر الأصوات التي سجلوها في ذاكرتنا العميقة و أقلب سجلات حملتها لأيام معي، لقد أصبحوا جزءًا مني وأصبحت جزءًا منهم ودون سابق إنذار يختفون، أو ربما نحن من نختفي، حاملين معنا حقائب الشوق والحنين، مسرعين نحو الرحيل، وجلين قلقين من العدو نحو مستقبل مجهول نسطره كل يوم وكل ساعة بأيدينا.

حتى الحياة رغم قسوتها وصعوبتها أصبحت الآن هينة دون معنى، لم يعد هناك من يشعرنا بأهمية ما صنعنا وما فعلنا، نتقدم، ننجح، نصبح أكثر ثراءً من قبل، نمتلك المال والسلطة، نمتلك الشباب والصحة والقوة، لكن لا نمتلك من نحب، لا نمتلك أو نشعر بالسعادة بدونهم، هكذا ودون سابق إنذار!

أسأل نفسي دومًا: أين ذهبوا؟

هل هم سعداء دون وجودنا معهم؟ هل تغيرت ملامحهم؟

هل تغيرت اقدارهم؟ هل ارتبطوا؟

هل تشاركوا ذكرياتهم مع أشخاص آخرين أفضل مني؟

هل حققوا أحلامهم التي أخبروني بها؟

فضول يقتلني، أريد أن أعلم ما قد حل بهم، فقط لو أمكنني أن أنظر لهم من بعيد دون ان يشعروا بوجودي وأرحل، أرحل لذلك الدرب الذي اتخذته، للطريق الذي سلكته عندما قررت الرحيل.

لقد قررت ألا آخذ أحدًا معي في رحلتي نحو المستقبل، أخذت فقط بعض ملابسي وبعض اوراقي وكتب مذكراتي وبعض الأغراض التي ترجع بتاريخها لأشخاص آخرين، لقد أهدوني إياها عندما كانوا وكنت، أخذت رائحة العطر الخاصة بشخصي المذهل، في كل خطوة على سلم الطائرة أشعر كأني أبتعد لسنوات عن كل شيء، عن روحي، عن وطني، عن أنفاسي.

أنظر من نافذة الطائرة علني أشبع مشاعري ونهمي بالمكان، علني لا أدمع أحاول أن أستجمع قواي وأغمض عيني لوهنة، نعم لا وقت للتردد، لقد حسمت القضية، أغمض عيني مجددًا وأحاول النوم، لن أفتحهم مجددًا سوى في المطار الجديد، في المحطة القادمة، في العالم الآخر الذي بانتظاري!

على هامش الحظ ألقي معطفي أنا لا أهتم بشيء، رحلتي القادمة لا تعترف بالحظ، لم أعد أبتسم كثيرًا، يبدو أن مرضًا يلتهم قلبي ببطء!

****

كان يعشق مشاكستي بأمور النساء:

- اسمعي يا جميلتي، من يبحث عن امرأة طيبة وذكية وجميلة فليبحث عن ثلاث نساء.

رددت:

- غلط كلامك!

قال:

- من خلال تجربتي في الحياة أكاد أتكهن أن أغلب النساء كما ذكرت، وهذا ليس عيب بالضرورة حيث يمكن أن تكون هناك مميزات إضافية لا غير وتعطى كهبة!

- لكن يا عابري لن قول أن تلك الصفات الثلاث ستتواجد بامرأة واحدة لأن هذا ضرب من الخيال والكمال ولا يوجد أحد كامل، لكن يمكن أن تجتمع صفتان مع استبعاد الجمال ليبقى الذكاء والطيبة، إنهما أحسن صفتين يبحث عنهما كل شخص.

ردّ مبتسمًا:

- نظريتي تقارب الصحة، ربما تكون وجهة نظرك قريبة الصحة أيضًا حيث إنك تثبتين هذا.

- طبعًا! فكلامك صحيح يحتمل الخطأ، فالمرء لا يستطيع طلب الكمال ولن يجده، وكلامي بالنسبة لك خطأ يحتمل الصواب.

- صدقتِ سيدتي!

- يعني أخيرًا وافقت على كلامي أم أنك أخدتني على قدر عقلي؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

ردّ:
- هههههه، حتمًا سنلتقي في نقاش جديد، لكن يظل هذا نقاشًا فقط ولن يغير ما بيننا، أفهمتِ؟.
وصمت كعادته.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- طفلتي، أتدرين أن أجواء الثلج تسيطر على المدينة التي أعيش فيها الآن؟
ضحكات الأطفال وألعابهم أشبه بمسرحية راقصة، يا له من منظر رائع وشعور جميل!

أنا في هذا الوقت مقهورة بشدة، كيف للأبيض النقي أن يطغى عليه الأسود؟
كيف طغت القسوة على قلوب البشر وانتزعت الرحمة من أرواحهم؟
عيونهم أصبحت زجاجية كالدمى لا يحسون ولا يتحركون.
حزينة على نفسي، على أيامي الماضية، على أفكاري التي تشتتت وضاعت، وأحلامي التي نهبت، بت أمشي في طريق لا أعرف نهايته، فقط أمشي!

أصرخ:

لما أنا وحيدة هنا؟ أين أجد النهاية؟
أين الذين أعرفهم؟ أين هم؟
أين الذين أحبهم؟
هل جربتم يومًا أن تتحولوا إلى طائر صغير؟
تفرد جناحيك كل يوم وتحاول أن تطير من أجل اللحاق بهم والبحث عنهم،
ويخذلك جناحك وأنت في وسط السماء لتسقط فجأة على الأرض!

لقد كنت أحاول كل يوم، ولازلت أحاول فلربما في إحدى المرات أنجح.

****

قال لي ذات مرة:
- لا تندهشي مما يحدث حولك بل حاولي دائمًا أن تهيئي نفسكِ للأسوأ؛ البشر غريبون جدًا، تفكيرهم أحيانًا يبدو غير سليم كمختل فقد عقله.
أستغرب كثيرًا؛ فأنا لا أعلم سبب حقد البشر على بعضها البعض، لكني على يقين أن أغلب الأمراض التي تصيبنا والمشاكل التي تحرقنا وتمزقنا هي بسبب الحقد العميق في قلوبنا،

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

إن البغض الذي نكنُّه لبعضنا البعض أشبه بمن يحمل شعلة من نار يحرق بها نفسه قبل أن يحرق الغير.
يبقى السؤال الذي يتردَّد داخلي: هل يمكن أن نترك أحقادنا جانبًا؟
هل يمكن أن نمضي في طريقنا بسلام دون تلك النزعة العدائيَّة؟
أيمكن لكوكب الأرض أن يصبح أجمل إذا ما تنازلنا عن كبريائنا المشئوم قليلًا؟
أجابه أحدهم:
- الابتعاد عن الدين أهم الأسباب، وغياب العدالة الاجتماعية، والبطالة، والتربية الأسرية، وغير ذلك من أسباب.
ردّ عليه:
- كلام صحيح، بالإضافة إلى النزعة الفكرية التي تغرس فيهم والتي يساعد في غرسها المجتمع والمنزل ونظام الحكم، كل الأشياء حولنا تساعد في غرس فكرة معينة تحمل معانٍ سيئة يمكنها أن تدمرنا بينما بإمكانهم غرس الفضيلة بسهولة أكثر، لا أعلم السبب حيث إن جميع الأسباب مهيئة لواقع أجمل، لكنَّ العابثين كُثْر.

استمعت إليه بتمعن، كان حديثه مع أحد الأشخاص وتحليله رائعًا، وعندما أكمل كلامه قلت له:
- لا تقلق، سنعيش بسلام متى تنازلنا عن ذلك الكبرياء الملعون.

كان عليّ أن أعي جيدًا وأستوعب أن ثمة لحظات جميلة عشناها لن تتكرر أبدًا، ثمة أوقات ستمر علينا دون أي إحساس بالفرح أو السعادة، ثمة ظلام لن يبزغ بعده فجر، ثمة أشخاص لا يعوضهم ولا يسد مكانهم أحد.

- أتشمين رائحة تعمُّ في الأرجاء؟ أم أني الوحيد الذي يميزها؟
- عن أي رائحة تقصد؟

- رائحة الموت منتشرة، أشتمها بهدوء، لقد حان وقت الرحيل.

- خذني معك، إلى أين تذهب؟

- هذه الطريق طويلة ومخيفة؛ لن تستطيعي العبور فرائحة الموت من حولك أينما تذهبين.

- ليست هناك مشكلة، سأكون معك حتى الموت.

- هههههه، عباراتك جميلة لكنها وللأسف قصيرة.

- لقد صرت أعشق الموت.

- لا تتعجلي كثيرًا، رسول الموت يحوم بالأرجاء حولنا، جهزي حقائبك جيدًا قبل أن تعشقي ما ليس يعشق، لكن لا داعي لأن تخافي أبدًا يا صغيرتي من الظلمة الموجودة حولك؛ فالظلمة الحقيقية هي أن نعيش في قبر ونحن لانزال في الحياة.

- سأرافقك إلى حيث ذهبت، فقط لا تعترض أنت.

- كَلامكِ هذا يعني أن تصبحي كمن يسقي نبتة ميتة وينتظر أن تتفتح يومًا!

- أيعقل حقا يا سيدي؟ هل ستطويني ككتاب قديم وكأني ما عرفتك يومًا؟ أتتركني خلفك؟ أيعقل هذا؟!

صمت طويلًا وتجاهل الرد على كلامي كعادته.

لست موجوعة، لست حزينة، لست متعبة، لست نادمة، لست ولست ....

إنما أوجاع الدنيا وأوزانها كلها رست بأعماق روحي كباخرة ضلت الطريق وحطمتها العواصف فغرقت لتستقر بثقلها في عمق البحار وتدفن هناك وسط الرمال.

داخلي أصبح يحمل الكثير من المشاعر المتناقضة، فمنذ أن تعثرت بالحب بنيت في قلبي مدينة محصنة له، لكنها تنتحب.

أحتاج لرصاصة طائشة من الشخص الذي يحمل بندقية ويراقبني من فوق الأسطح، أقول له: أرجوك! صوب نحو رأسي، صوب ولا تتردد فداخلي ألم لن يسكنه سوى رصاصتك!

عندها فقط سأموت وتحط الفراشات الصغيرة فوق خصيلات شعري المتناثرة على وجهي المملوءة بالدم معلنة بداية سنوات الحداد، وسأقرأ حينها على تلك المدينة الموجودة في وسط قلبي السلام.

قال لي مرة كلامًا غريبًا:
- فصلها ربيعي نصف شتوي!

- ما معنى هذا ؟

- يعني أن كل شيء إذا ما بلغ الاكتمال لابد له من نقصان، فبالرغم من أن حبيبتي تتسم بجمال الربيع وسكونه، لكنها تحتوي على القليل من برودة الشتاء.

أتعلمين من أنا ؟ ومن أكون ؟

أنا يا سيدتي اسمي الهدوء!

نظرت إليه نظرة غريبة ليقول وكأنه يمدحني:

- بعض النظرات ماكرة جدًا بشكل مخيف، لكن رغم ذلك تظل جميلة!

عصفورتي الجميلة، لا يوجد شيء يوازي وجودك معي، وجودك أعظم وأجمل هدية يمكن أن تقدم لي.

أميرتي، أعجز عن التعبير إذ تخونني الكلمات، ولوكان بإمكاني لما ترددت أن أحيك لكِ ثوبًا مصنوعًا من أشعة شمس الربيع وابتسامة الأطفال حيث أن ابتسامتك هي مصدر متجدد لطاقة وحيوية العالم.

أميرتي الصغيرة، ستمر الأيام وتمضي وسوف يستمر حبك دافعًا لأكمل الطريق بكل سعادة، شكرًا لكِ من القلب، لكن يا أسطورتي الجميلة الرحيل طريق وحيد أمامي سوف أسلكه يومًا، لا تحزني لا تتألمي لا تتعذبي لأنه بالنسبة لي موت سريري، فلا تقتليني مرتين.

- وأنا في طريقي إلى اللقاء بك، تعثرت بصدمة الواقع فسقطت مني أمانيّ وتاهت أحلامي!

قال بغضب :

- عالم يعيش فيه تافهون، ماذا تتوقعين؟

ماذا تتوقعين غير عاهات فكرية؟ لا أعتذر لأحد سوى نفسي لقدرتها على تحمل أولئك المختلين.

لا أزال أمتلك تلك النظرة البعيدة لذلك العالم، لا أجبر أحدًا على الدخول لمملكتي، لكن يجب أن يستوفي الجميع الشروط؛ لأنَّ في مملكتي يحرم الكلام ويمنع السؤال، لا يسمح لأحد بغير المشاهدة والاندهاش.

ثم قال وكأنه يحادث نفسه:

- إن كان البعض يعتقد أنه على قيد الحياة لأنه يتنفس فقط فعار عليه أن يكون على قيد الحياة بهذه الطريقة الجبانة.
إحساسنا أننا لازلنا أحياء لا يكفي من دون أن نحب؛ لأننا بدونه لا فرق بيننا وبين الأموات، فالموت في الحب أهون وأفضل من العيش في الكراهية، أن تبقى حيًا هكذا لهو أمر بشع حقًا.
- أتعلمين أن أسعد الأحلام هي الأحلام التي لا نستيقظ منها إلا حين ننام؟
قلت:
- لكنها تظل أحلامًا يا سيدي.
ردّ:
- لم تفهمي ما أعنيه، أقصد أن أجمل الأحلام ما كان واقعًا لا خيالًا.
إنها لن تصل يومًا إلى بلاغته في الكلام وتشبيهه الرائع المبهم والغامض.
صمت ثم قلت برغبة ملِّحة:
- أريد أن أتعلم منك فلسفتك الجميلة في الكلام والتعبير عما يجول في خاطرك بهذه الطريقة المميزة، أريد ذلك بشدة.

- أنتِ تطلبين المستحيل، أتعلمين أني لا أتقن العربية كثيرًا؟ ليست اللغة التي نشأت عليها لهذا أضطر في أغلب الأحيان إلى الترجمة حتى أوصل لك المعنى.

أنا أكتب شيئًا جميلًا سأريكِ إياه مع الأيام، لكنك تحتاجين لترجمة لكتاباتي، وطالما أنكِ بجانبي ستتعلمين الكثير، وهذا يتطلب سرعة الملاحظة والبديهة والفطنة كما يتطلب ذكاءً حادًا.

أتعلمين أن كل ما ترينه لم أتعلمه من قراءة تجارب الأخرين؟

وليس من الكتب والروايات رغم أنها تترك عندي انطباعًا عن أوجاعي وألآمي، لقد تركت أثرًا كبيرًا في داخلي وكذلك كل ما تبقى لي من أحباب؛ فعندما جئت إلى هذا العالم كان لدي عائلة مثل باقي الناس، وأقارب كثيرون، وأصدقاء دخلوا حياتي مع مرور الزمن، وأحباب كانوا يضيفون رونقًا خاصًا لحياتي الجميلة.

لقد جئت إلى هذا العالم محملًا بكثير من الأحلام والأمنيات، بعضها بسيطة وجميلة والأخرى معقدة وشبه مستحيلة، إننا نولد دون أن نعرف ماذا سيحصل معنا في المستقبل، كنت أظن مثل باقي الأطفال أني سأظل محاطًا بهم إلى آخر يوم في حياتي، لكن الواقع غير ما نظن، والقدر أدرى بما سيحصل معنا.

كل يوم يرحل أحد أقاربي وأواريه التراب بيدي ليتركني وحدي في الظلام، وفي كل نقاش خسرت أحدهم لتحفظي بوجهة نظري التي كبرت عليها، وفي كل شدة تواجهن في عملي يختفى صديق من حولي ليتركني وحدي، مع كل صدمة حقيقة أجبرت على أن أتخلى عن حلم من أحلامي رغم بساطتها، وعند كل مفترق طريق دُهِسَتْ لي أمنية من حقود أو حسود دون رحمة، كم مرة اضطررت لتغيير الوجهة فقط لأعيش، وهكذا تمضي حياتي بتعثراتها وتقلباتها، بخذلانها وخيباتها جميعًا.

فلسفتي التي تبدو لك جميلة دفعت ثمنها غاليًا لأتعلمها وأتقن فهم الحياة الصعبة من حولي.

ذوقه كان مميزًا وفريدًا مثله في كل شيء، لكنه قال مرة عندما عرضت عليه بعض الرسومات:

-أنتِ على فكرة تشبهينني في ذوقك، ألاحظ أشياءً جميلة مشتركة بيننا.

- يمكن، لكن ذوقك أفضل مني.

- ذوقكِ جميل أنتِ كذلك، لاتخفِ هذا.

أحب لا بل أعشق تطابق ذوقي مع ذوق ذا الغريب، وما أعشقه أكثر مزاجنا الغامض في التصرف بجنون وعكس المنطق، فهو من قال لي مرة أنه لا يحب امرأة هادئة؛ فالمرأة المجنونة بتصرفاتها تروقه أكثر.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

رسالة كتبت و لم ترسل ....

صباح الخير،

كيف حالك؟

أرجو أن تكوني بخير.

آسف جدًا على ردي المتأخر،

ولكن ليس بيدي، تعلمين ظروفي لذلك أعذريني فقط.

رسالة إلى صديقة روحي ....

تاهت الرسالة، وذهبت الصديقة.

- يا جميلتي، لقد أصبح قلبي كصندوق بريد مكتظ برسائل عتيقة وصلت للعنوان الصحيح، لكن الأشخاص الذين كتبت من أجلهم ما عادوا هنا ليقرأوها.

إحدى أجمل اللحظات اليوم رغم كل شيء أنه لايزال الأمل شمعة تضيء لنا الدرب، احذروا أن تنطفئ.

حياتي يا جميلتي صعبة ....
وأحيانًا نشعر أن الوقت أكثر صعوبة، لا أعلم! يبدو كل شيء ضبابي في هذه اللحظة.
رديت عليه:
-كلامك يبدو جميلًا من الخارج، لكن له معنىً عميقًا مؤلمًا.

- آه لو تعملين، لقد مللت الكلمات، يعجب الجميع بشكلها أما ما تحتويه من ألم فلا يهتم لأمره أحد.
على خصلٍ مجهول
الخنساء عباس الشهاب
أتعلم يا صاحب قلب الملاك:
-كلامك يعبر عن شعور مؤلم لا تصفه أدق الكلمات، طبعًا يا سيدي لا أحد سيشعر بما تحتويه الكلمات من ألم إلا شخصان: كاتبه وشخص مر بنفس التجربة، فلا تتعب نفسك بالشرح.
- لو تدرين ما يسيطر عليّ في هذه اللحظة من اكتئاب فظيع وخوف أفظع، أنا لا أهتم لمصيري مطلقًا، كل الخوف على من حولي.

المسألة يا سادة بكل بساطة أن روحي تتألم من أجل جسد آخر، إنه قلق لا يماثله قلق.

- لا تقلق يا صغيري، أعلم أن سحبًا كثيرة تجمعت فوقك وصارت سوداء معتمة، والمطر يهطل بشدة في حياتك، لكن خلف كل مطر تظهر ألوان الطيف الجميلة لتبدد الغيوم وتشرق الشمس من جديد.

- منطقيًا أكرهك عاطفيًا وبكل غباء أعشقك!

قال هذا ثم قرأ بحزن قصيدة فاروق جويدة:

العطر عطرك والمكان هو المكان
لكنني ما عدت أشعر في ربوعك بالأمان
شيء تكسر بيننا لا أنت أنت ولا الزمان هو الزمان.

أجبته قائلة:

- أتدري لماذا؟
لأن هناك حاجزًا بيننا، شيء ما موجود في المنتصف، لم نعد كما كنا سابقًا وكأن هناك مسافات طويلة تجهدنا ولا نصل إلى بعض، لكن متى تتبدد المسافات بيننا؟ متى تختفي؟ كأن مدنا تقف بيننا فتمنعنا من الاقتراب من بعضنا، كلما اقتربنا قليلًا ابتعدنا أكثر، كلما دنوت منك لا أجدك،
لكن تأكد من هذا ....
إن كنت في الغرب وكنت أنا في الشرق الأوسط،
إن كنت في آخر هذه الدنيا وأنا في أولها،
إن كنت قمرًا وأنا الشمس فلا استحالة من اجتماعنا يومًا ما،
إن كنت ظلا أسود وأنا كنت نورا أبيض فلابد من أن يتم لقانا.
- يا جميلتي، طبعًا يمكن للقاء أن يحدث يومًا ما؛ فكل مستحيل يصبح مع الأيام سهلًا.
كنت أتمنى لو بقي بجانبي، كنت أتمنى لو أخبرني بالكثير عنه، كنت أود معرفة المزيد عن حياته، لكنه كان دائمًا الرجل الغريب الذي يتميز بالحضور الغائب!

لكل إنسان توأم روح في الحياة- هكذا قرأت مرة- قد تهديه لنا الحياة صدفة لنجده وقد لا نتمكن من إيجاده مهما بحثنا عنه، لكنَّ الأهم من كل هذا وذاك أنه يجب علينا معرفة كيفية المحافظة عليه إذا نحن عثرنا على توأم أرواحنا.

هل حدث أن التقيتم بتوأم روحكم ولو صدفة؟
هل حدث ذلك؟
أنا طبعًا وجدته، كانت صدفة غريبة ومن أجمل الصدف، كان لا يشبه أحدًا ولا أحد يشبهه، إنه توأم روحي وقلبي.

كنت لا أصدق بتاتًا بوجود توأم لأرواحنا في الحياة إلى أن صادفته ذات يوم.

على خطى مجهول

لقد كان يشبهني كثيرًا.
يشبهني في كلِّ شيء، يختلف عنِّي فقط في قسوته الحنونة وغيابه المؤلم.

لم يكن يخشى أحدًا، ولم يكن يطيع أحدًا،
كان متمردًا في كل شيء حتى كلامه البنقالي كان دائمًا رائعًا مذهلًا ومميزًا.
لم يكن يهاب أحدًا ولم يكن ينحني لأحد، لا يشبه أحدًا ولا أحد يشبهه
كان هو فقط ، هو؟
نعم، هو هو،
نفس الشخص الأسطوري الذي عرفته يومًا، شخص لن يتكرر في الحياة مرة أخرى!
أتى صدفة وذهب صدفة، ليس له شبيه، يحق له الغرور، وكيف لا يغتر؟
وكيف لا يثق بنفسه ومن يملك صفاته لا يوجد له شبيه؟
أنا لم يحدث أن عرفت رجلًا يشبه هذا الرجل في غيابه الجذَّاب وحضوره الملفت للانتباه، رجل يلبس الغموض ويغشاه الصمت.

لطالما بعثرتني تفاصيل رجولته المميزة، هادئ يتخذ القرارات الأصح حتى لو كان غاضبًا، رجل أنيق حتى في أبسط كلماته، ليس بشاعر ولا بكاتب، ولكن كل كلماته التي ينطقها أجمل من الجمال ذاته، له قدرة عجيبة على أن يدعني أرتبك كلما تحدث، إنه ذلك الشخص ذو العيون الغريبة، النظر إليها يجعلك تدخل في دوامات، عيونه الجذابة تحمل لونًا جميلًا.
ملك الطلة المميزة المنفرد بجمال غير عادي وجاذبية مذهلة، إنه أغنية قديمة فريدة من نوعها، له جاذبية شخص غامض، ومجهول مميز يستدرج الجمال بحضوره اللافت.

صاحب الجسم الممشوق، بارد الأعصاب، صاحب العينين الغريبتين، متوسط القامة، مجهول الهوية، غامض المصير.
محبوس كسجين داخل زنزانة الماضي، باهت الألوان، عميق العبارات، مشتت العبرات.
يلبس ثوبه الأسود، يحمل سلاحه الرفيع الأثري، يصفف شعره الأسود المائل قليلًا إلى الأشقر، له ابتسامة جذابة، يلبس بدلة باهظة الثمن، يجلس على أريكة فاخرة، راقٍ في تنظيم منزله الفاخر، في عينيه برود شديد، حذاؤه الأسود يلمع إذ يلمحه كل من رآه من بعيد، فهو معتاد على الذهاب بحذاء لافت للأنظار، كما أنه يولي أحذيته عناية فائقة،

ينتعل محزمة جلدية مصنوعة من جلد الغزال وفي رأسها فصوص من الأحجار العتيقة إفريقية الصنع.
بسلاحه الروسي، وبدلته البريطانية، وسيارته الأمريكية، وساعته السويسرية الصنع، ومنزله الذي بني على الطراز العربي، وأثاثه الألماني، يتجوَّل في جميع بلدان العالم ليعود في النهاية إلى أريكته العتيقة، المعبَّقة بالذكريات- لا يملك فراشًا دائمًا بل مجرد فراش مصنوع من الإسفنج- مكتسٍ بطمأنينة.

لقد سألوني عنك كثيرًا.

فراقنا كان موجعًا، موجعًا جدًا.

مذ تعرفت عليه كان يشدُّني كلامه الغريب وطريقة سرده للأحداث إذ كلَّما أخبرني شيئًا بسيطًا عن نفسه كلَّما تعمقت فيه أكثر و غصت في ثنايا روحه أكثر فأكثر.

صرت أفهمه ثم رويدًا رويدًا تعودت عليه وتعلقت به كثيرًا، بعدها اختفى، اختفى فجأة دون أي سابق إنذار.

يا ترى متى سأراه مجددًا؟ وأين؟

أينما كنت في هذا العالم ....
أستطيع أن أحس بوجودك بجانبي وأن أشعر بخطواتك تقترب نحوي.

ينقصني اليوم صوت، صوت ذلك الغريب ليكتمل يومي هذا.

أخبرني من تكون؟

من تكون يا صاحب الخيال البعيد؟

بيننا ذكرى جميلة، قلب متعب، وروح حزينة، لكن تبقى أنت وحدك، أنت وجعي الجميل الذي لا يعلم به أحد.

أغلب أحاديثه تمتزج بالثقة، ثقته عالية جدًا بنفسه، يتحدث عن الحياة بفلسفة غريبة ومبهمة بالنسبة لي؛ فهو له تجارب كثيرة.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

قال لي:

- أتدرين أن الجميع يمضون في درب الحياة؟ البعض لا يعلم كيف جاء وإلى أين سيذهب، والبعض لا يعلم كيف جاء، لكنه يعلم أين سيذهب، هذا هوا الفرق بينهم.

بعض الأوقات تمتزج السعادة بالخوف، وعندما نُقدِم على خطوة جديدة تكون الإرادة صادقة ممزوجة بالقوَّة والشَّجاعة.

لا أخشى المنعطفات الجديدة لأنها تكسبني الخبرة، لن أعود للخلف، أقسمت على نفسي أن الطريق الذي أسلكه لا أعوده مجددًا، أقسمت أن أنتصر رغم كل الصعاب، هناك مقولة دائمًا أقولها و أردِّدها لنفسي:

(لا تستسلم أبدًا مهما صعبتْ عليك الحياة).

نظر إليّ ثم قال بثقة:

- سأصير يومًا ما أريد، لا الرحلة بدأت ولا الدرب انتهى.

ما بين الواقع والخيال خيط رفيع يفصلها عن بعض، نعلِّق عليه أحلامنا، نشدُّه بقوة، نلد عليه أجمل الأوهام ونربّيها لتكبر، نعيش في كَنَفِ الوهم، لكنه قد ينقطع فجأة لنسقط، هكذا ستظلُّ الحياة تؤرجحنا بين أحلام وأمنيات، فليدوِّنوا ما يشاؤون، لن يحدث إلا ما كتب الله لنا.

قال لي مرة أنه قرأ أنَّ النساء كتب سوداء كلماتها مضيئة لا يجب قراءتهن إلاَّ بالليل.

وأنا فتاة مترفة في الأماني، حالمة عاشقة للمستحيل، فهل سأجد يومًا من يستطيع قراءتي وفكَّ شيفرتي الغامضة؟

ذاك الصَّديق الذي كان بين الفينة والأخرى يعبر لي عن مدى إعجابه بشخصيتي،

ذات مرة سألته:

- أخبرني، ما رأيك فيّ؟

- أمممممممم، رأيي الشخصي فيكِ أنَّ طباعك جيدة، طيّبة، تفكيرك سلبي بعض الأحيان، قليلًا ما تثقين بالناس حولك- هذا من جهة جيّد ومن جهة أخرى سيئ- كما أنكِ ذكية، تعرفين كيف تكتمين أسرارك، تتعلمين بسرعة فائقة، موهوبة وإذا غبتِ فإن من يعرفك سيفتقدك ويشعر بغيابك أي أنَّ لكِ بصمة في حياة كلِّ من يَعرفكِ ....

انتظري قليلا سأهديكِ صورة جميلة!

هديته الغريبة و الغامضة التي قال أنها تعبر عني يطغى عليها اللَّون الأخضر، منقوشة من الجوانب بنقوش قديمة صفراء.

سألته مستغربة:

- ما معنى هذا؟

- ألم تُعجبكِ؟

- لا بالعكس إنها جميلة جدًا، لكن كيف تعبر عني؟

- لاحظي جيدًا، هذه الصورة منقوشة بنقوش قديمة كانوا ينقشونها قديما على جدران غرف الأميرات حديثات السِّن، وهذا اللَّون يعبر عن مدى النور الذي في داخلهم، لكن كلَّما أمْعنتِ أكثر كلَّما كان العالم مظلمًا ومعتمًا أكثر، يطلق عليه الحوافُّ المظلمة، هكذا أنت من الداخل وعالمك الخارجي.

قلت و علامات الدَّهشة تعلو ملامحي :

- أعجبني تحليلك!

- قولي فلسفة، فأنا أتفلسف كثيرًا.

ذهبت إليه، أخبرته عن الكلام الذي قاله هذا الصديق،

ضحك ثم قال:

- مجرد فلسفة، هي فلسفة لا غير!

قلت:

- لكن تحليله كان رائعًا، ووصفه صائب.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

ردَّ وكأنَّ الغيرة لامست قلبه قليلًا:

- أتعلمين أني بدأت أكره هذا الشخص؟.

أنا جالسة في غرفتي وحيدة ....

وَحيدةً أقف أمام مرآتي، أجدِّل شعري، وجهي يبدو ساكنًا وعبوسًا، شريط ذكرياتي تلفني كحزام سميك يشد خصري، لكنه قديم، يطبق عليّ بقوة فأحاول نزعه مسرعة.

كأنَّ قواي خارت، أحدث نفسي متسائلة:
هل حقًا تعبت من المشي في هذا الطريق الطويل؟
أم أن الطريق انتهى بي هنا في المنتصف؟

أردِّد عبارات أمل وأشعر بتفاؤل نحو وجهتي القادمة، أكتفي بها لأشعر أنَّ لي وجودًا وأنني على قيد الحياة، أقف أمام شباك نافذتي، أفتح الستائر ببطء، تطلُّ أشعة الشَّمس بقوة، أغمض عيني، منذ مدة لم أقف أمامها، ينعكس على غرفتي الضوء السَّاطع المنبعث منها، يقف عصفور جميل على الشجَّرة بالجوار، أتطلعُّ إليه بفرحة، يعجبني عالم الحرية الذي يعيش فيه، أغار منه لأنه يستطيع التَّحليق إلى أيِّ مكان يريده كلما ضاق به الحال، أراه يجوب بجناحيه الكون بحريَّة مطلقة، يشعرني بأن الحياة لازالت جميلة، ثمَّ بعد أن أحدِّق عليه بالسَّاعات أعود لغرفتي، أعود وأكمل كتاباتي.

- كفراشة جئت أنثر رحيق جناحي عليك فوقعت في شباك بَيْت العنكبوت.

قال:

فراشتي الصغيرة، أتمنى ألا أكون من يحرمك من الحياة، ليتني أقدر أن أكون أي شيء آخر، أتمنى أن أكون- يا صديقتي الحزينة-دواءً لا داءً، أن أكون سندك وعضدك في أقسى الأيام، لكن كيف أهرب من هذا القدر؟

وماذا أفعل بحالي؟

****

في إحدى المرات وبينما نحن نتحدث فاجئني قائلا:

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- أتعلمين ؟ أنْتِ تشبهين شخصية روائية.

قفزت بسرعة:

- من هي؟ أخبرني.

- امممممم اسمها هايدي.

- اسمها هايدي! أتقصد نفس الشخصية الموجودة في الرسوم المتحركة؟ لقد شاهدتها منذ فترة.

- لا أقصد تلك، إنما التي أقصدها شخصية كبيرة.

- ما الذي تحكي عنه الرواية؟

- لا أستطيع إخبارك، إنها تتحدث عن فتاة وشاب يمكن تشبيههم بنا.

- أخبرني أرجوك، ماذا كانت تعني له هايدي؟ أو على الأقل أخبرني نهاية القصة.

- امممممم لا أستطيع إخبارك، نهايتها محزنة جدًا.

سألته بحزن:

- أخبرني النهاية على الأقل، أرجوك.

- قلت لكِ أن النهاية ليست جميلة بل حزينة جدًّا.

لما تحاولين سبق الأحداث؟ أصْلاً النهايات ليس لها معنى، فلا تعكّري مزاجك بها.

قلت بإصرار:

على خطى مجهول
الخيال عباب الشهاب

- لماذا تترك لي دائمًا عَلاماتِ استفهام كبيرة حول النهايات؟

- أتدرين أنه في جميع النهايات سيفترق الأبطال أو يموتون، سيرتبطون وينجبون، يعيشون حياة سعيدة أو تعيسة، وفي النهاية سيرحلون ويعتبرون من الماضي، أما إذا ظلت التفاصيل مبهمة بالنسبة لكِ فسيظلون موجودين في عالمي الداخلي،

أفَهمتِ كلامي الآن؟

أومأت برأسي و أنا أزمُّ شفتي كعلامة عدم رضى.

ثمَّ قلت محدِّثة نفسي أظنني فهمت، ربما لم يرد أن يخبرني بها لأنه قال أن الأبطال يشبهوننا، وحسب ما ذكر لي أنها حزينة، فأظن أنه لا يريد لي أن أتشاءم إذ أنَّ النهاية لم تكن سعيدة، لكنَّها تظل رغم ذلك مجرَّد رواية بالنسبة لي.

قلت له بحزن:

- فهمتك طبعًا، لكن كم من الأشخاص ودَّعت يا عابري حتى تقول لي هذا الكلام؟

و تخشى ذكر النهايات ؟

ابتسم ثم واصل سكوته طويلًا ....

أظنُّه قد ودع الكثير من أحبابه حتى تحفَّظ ولم يخبرني النهاية، كما أظن أنه بات يخشى الغوص في النهايات لفرط تألمه منها.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

الذهاب إلى المجهول أصعب من الإبحار في حقل ألغام.

أنا ليس لي اسم أو هوية ....

أنا المجهول!

لماذا ينام الجميع في سلام بينما أنا ما زلت مُستيقظ ؟

ربما يفتحون أعينهم قريبًا فأنا أنتظر منذ سَنواتٍ.

شعور مخيف، شعور بالوحدة يلتهم جميع مشاعري، أختنق ببطء، لا أستطيع أن أتنفس،

جميع النظرات تبدو مخيفة أكثر من اللازم، ذهب الجميع وتركوني وحيدًا.

هل تركتموني ورحلتم ؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أين تذهبون بهذه السرعة ؟

أما من شمعة على قارعة الطريق لأن الظلام يؤلمني ؟

ربما أبكي الآن على من رحلوا، لا تعبثوا معي فأنا لا أحب أن تتركوني،

لا تطفئوا النور، عودوا!

يحدث أحيانًا أن أشعر بحنين مفاجئ، حنين غريب لا مكان له ولا زمان، لكن ما هي إلا لحظات حتى تأتيني الدموع.

لقد رحلوا إلى الأبد، تركوني ولن يعودوا، ها قد جاء موعدهم وقد رحلوا وظل الوعد ينتظر!

أتعلمين أنَّ :

حياتي أشبهُ بفقاعةٍ كبيرةٍ! تلتفُ حولي والأشخاصُ مجرَّد فقاعاتٍ صغيرة قابلةٍ للانفجار في أيِّ لحظة أتمنى الموت على ذراعيكِ يامن رحلتي وتركتني أعدكِ البردُ المرتسمُ في شفتيكِ الفاقدةِ للحياةِ سيرتسم عليَّ بنفسِ التفاصيلِ لاكنْ هذهِ المرَّة وحدي سأكونْ.

مشاعر الخوفِ تعترينا، أحيانا الوحدةُ تملء قلوبنا، في عالمنا المحيط بنا، الغموض يصبح هو الرداء الأمثل لشعورنا بالأمان، وعدم الخوف الكثير يمدون يد العون كل بطريقته وأسلوبه يريدون الوصول إلى قلوبنا إلى أعماقنا، القلوب تحتوي على آلاف الأقفال والأسرار والأبواب المحيطة بنا، ليس من السهل اقتحامها، عندما يمتزج الخوف البشري مع الاضطهاد يكون الأمر أشبه بوحش نهم يلتهم ما حوله لا يهتم بشيء سوى التدمير ليس من المهم عدد الأشخاص، من حوله الورود هي مجرد تفاهات، في عالمه العطور عباره عن ماركات لا يهم شيء! الجميع مشغولين بالنقص الذي داخلهم، الجميع يبحث عن الشيء الذي يفتقده في حياته، أنا لا أفتقد أحدا للأسف، لا أشعر بالندم على أحد، لا أشعر بالخوف من البشر، لا أهتم بشيء، لا أكترث للألوان لا تعني لي شيئا جميعها رمادية في نظري يكفي أن تميز الشيء الذي أخافه جداً عندما أكون وحدي، فقط هنا مشاعر الخوف تمتلكني، أصبح قاسِيًا بشكلٍ غير متوقَّع، بارِدًا بشكل ملفت، بَائسًا بشكل حزين، مُنطويًا باستمرار، جميع الأقنعة تختفي وتبتعد من علي لأكون بحقيقتي، حقيقتي أنَّ الأعين حولي تنظر إليَّ نظراتٍ بائسةٍ لعينةٍ مزريةٍ أتمنى أن أقتلعها.

لكي لا تتأذوا لا تقتربوا كثيرا الفراشاتُ الجميلةُ أقرب للاحتراق عندما تكون بالقرب من النيران لأنَّ الفراشة لا تعلم شيئا عن الاحتراق قلبها تكيَّف على النور.

برود ملفتٌ، يئسٌ مُطبِق، حزن يَكْتم الأنفاس أتمنى من الموجِ أنْ يأخذني للأسفل حيث يقوم بتهشيمٍ عظامي وتفتيتِ ملامحي لا شيء يستحق أنْ أنظر إليهِ مجدداً.

أحزنتني كلماته :
- أتعلم يا عابري أن أسعد الأطفال هم أولئك الذين ظلوا صغارًا إلى الآن ولم يعرفوا معنى الفقد ولم يتجرعوا الحزن و لم تذرف مقلتيهم إلاَّ دموع الفرح ولم يذوقوا طعم الألم المرير ؟

لكن ماتزال هناك لحظات جميلة لم نعشها أنا وأنت، هناك أشياء كثيرة لم نتحصل عليها ولم نمتلكها بعد، ما يزال هناك الكثير من النواقص التي لم نكملها معًا، تنتظرنا أوقات كثيرة.

أجمل ما ظل بي أنني لازلت أنتظرك بلهفة لنجتمع من جديد في الغد إن شاء الله هناك الكثير من الحكايا التي خبأتها من أجلك في صدري ولم أسردها لك بعد، أنتظر بلهفة حتى أخبرك بها عندما تأتي.

منذ عرفتك تعلمت الكثير؛ فَبِك بكيت وضحكت، و مَعكَ حزنت وفرحت.
أحيانًا ودون سابق إنذار أشتاق إليك، لتلك الأمور التي تخصك رغم بساطتها، لصوتك وطريقة كلامك، أشتاق لها كثيرًا.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أسألك بلهفة:

كيف حالك؟

لقد فقدت ذاتي منذ ذهبت مع الغياب.

هل أنت مرتاح بدوني؟

أنا لست مرتاحة، فقط أنتظر لقاءنا الجديد.

هل أنت مشتاق إليّ؟

منذ هجرتني مع الغياب عرفت معنى الاشتياق الموجع.

هل أنت وحيد؟

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أكرر أني وحيدة بدونك، وسأظل وحيدة إلى الأبد.

لقد أعيتني المسافات بيننا وأتعبتني، فمتى تتعب أنت وتعود إليّ؟

خاطبني هامسًا:
- هييبي ياريحانة الوادي، لا تفارقيني حتى في أحلامي، يا قدرًا كُتب له أن يرحل.

لا تدع أحلامك تتجاوز سقف الواقع كثيرًا؛ فبعض البشر بارعون في شنق الأحلام وإعدامها.
لا تركض وراء الأشياء السهلة والمريحة لأنها تفقد اللذة حين تمتلكها، الأسهل ليس الخيار الأمثل، إذا كان الطريق يبدو سهلًا فاعلم أنك في الطريق الخطأ.

صدقوني، حتى البشر لهم موسم خريف يتساقطون من الشجر كأوراق مصفرة ذابلة.

نداء إلى ذلك الغريب ....

أنا هنا، فأين أنت؟

أنا هنا أنتظر، ليتك تأتي إليّ مرة دون انتظار طويل، دون لهفة مني، دون اشتياق،

دون حلم أو خيال.

ليتك تأتي لتراني، لتسألني عما حدث لي بعدك؟

فأنا لم يعد يقتلني غيابك لم أعد أقدر على وعدك بالانتظار أكثر، يجب أن تأتي قبل موتي، الطويل بل ظهورك كطيف.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

اعتراف حزين ....

بعدك الطويل جعلني أعرف المعنى الحقيقي للوقت، الوقت في غيابك أصبح سرمديًا،لا يعرف بالثواني ولا بالدقائق ولا حتى بالساعات بل بالمسافات، بالبحار، بالسماء، بالأرض التي تفصلنا، فكل الساعات على الحائط لم تعد تعمل، توقفت عقاربها، في غيابك أصبحت كل الأشياء لها معاني مختلفة، الأماكن، الأشخاص، رائحتك البعيدة مني القريبة من أنفي أشمها حولي، في غيابك أدركت أنك إنسان المستحيل وشخص الخيال؛ فحضورك له فرحة خاصة ونكهة غريبة، فأنت ساعتي الخامسة والعشرين التي لم يصل إليها العقرب حتى الآن، ويومي الثامن غير الموجود في الروزنامة العادية، وفصلي الخامس الموجود ما بين الخريف والربيع الذي من المحال أن يأتي، وشهري الثالث عشر الذي تتعاقب عليه السنين و لا يظهر.

عدني ولو مرة، مرة واحدة فقط، بأن تأتي وأعدك أن أنتظرك إلى يوم مماتي.

حقائبي محملة بأحلام وأمانٍ بالية، لازلت أبحث عن بقايا منك تساقطت في ذهابك علني أستدل بها في طريقي لأجدك، عن البقايا التي تناثرت وتشتت هنا وهناك، الغياب أخذ كل شيء معه حتى الفرح والسرور.

كل ما أود إخبارك به هو أنني لست بخير في غيابك بل متعبة جدًا.

أين أنت؟ أتسمعني يا هذا؟

هذه المرة طال غيابك كثيرًا.

أتعلم أن غيابك كان أقسى شيء أواجهه في حياتي؟ منذ غِبتَ خلَّفت وراءك فراغًا كبيرًا،

في غيابك أصبح كل شيء يمر ببطء حتى عقارب السَّاعة توقفت!

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

- لماذا طال غيابك هكذا؟

- لا أدري!

لكني شعرت وكأنك لم تترك يدي أبدًا، لازلت أصدق وعودك وسأظل أتحمل غيابك.

يمكن للموت أن يطوي كتبنا على حين غرة ويأخذنا ونحن مشتاقون والحنين يملأ قلوبنا، يمكن للقدر ألا يمنحك فرصة لتقول كل ما في قلبك، لكن أرجوك أخبرني عن أحوالك بين الحين والآخر، لا تدعني أنتظر كثيرًا.

الجو بارد، أعلم أنك تبرد كثيرًا وجسمك يمرض بسرعة؛ فانتبه لنفسك مع هذا الغياب.

شيء واحد يمكن له أن يعيد جمعنا، إنه شعور داخل نفسي بأن الفراق بيننا لن يطول.

أصبحت تسكن قلبي، ولم أعد أقوى على غيابك؛ فلا تطل الغياب أرجوك.

- عما قريب سآتي فليس هناك داعٍ للقلق. أنا قلقة جدًا، لا أستطيع أن أخفي عنك هذا.

تأخر هو، وطال انتظاري أنا ....

****

عندما تغيب يا غريب يصبح قلبي كقطعة ثلج باردة، أذبل كزهرة.

لازلت ترتدي الغياب ببراعة، وأنا كل يوم أنتظر صوتك بلهفة، أترقب مشي خطواتك بعينين مشتاقتين، لقد كان آخر وعد للقائنا عند نزول أول مطر، كم أخاف أن يأتي المطر ولا تأتي! كم أخاف ذلك!

كم أخشى أن تخلف وعدك وتنسى الموعد! كم أخشى ذلك!

أنا أصبحت السعادة المرسومة في وجه حزين، وأنت الجمال المتربّع على شكل غائب.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

لازال في داخلي طفلة صغيرة بريئة تعيش ولا تعي شيئًا مما يحدث في هذا العالم، تضحك بصوت مرتفع، تلاحق الطيور، تلعب حتى تتعب وتنام بهدوء، وأنثى حزينة تبكي بصمت، اختفت ابتسامتها، عيونها متورمة، تبدو يائسة ومحبطة، وامرأة ناضجة تضحك بهستيرية من صرخات الألم ساخرة من كل ما حولها، والأخيرة متبلدة كأنها لا تعيش أي وجع، لا تبالي بشيء، لازالت ترسم ببراعة ابتسامة على وجهها الحزين دون أن يكون لهذه السعادة المزيفة أي صلة بالمدينة المقتولة داخلي، تلك البسمة المزيفة الكاذبة الغريبة أتصنعها فوق إرادتي، ألبسها كرداء لطمس الوجع الساكن بين ثنايا روحي.

هذا الأثر البادي على أوراقي كخربشاتٍ هو جميع أمانيّ،
تلك الندوب الموجودة التي تعلو وجهي كأثار كانت كل أحلامي.

لا تغرَّنك هذه القوة التي أتصنعها كدرع محصن؛
فأنا ضعيفة من الداخل، أنا لست على ما يرام.

استمع جيدًا إلى أنفاسي، تأمل عيني؛
فالكلام الذي في الداخل يا غائبي لا تعبر عنه الكلمات.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أصعب شيء في الحياة هو محاولة مزج نفسك مع شخص مختلف عنك تمامًا، مختلف عن حياتك، عن عالمك، عن وجودك كله، عن عاداتك، عن تقاليدك، عن طريقة عيشك.

****

أنا اليوم ....
متعبة مرهقة، بي رغبة في النوم طويلًا، طويلًا حتى أني أتمنى ألا أستيقظ أبدًا، تلزمني استراحة كبيرة لأغفو قليلًا على كف الحياة، لم يعد أي شيء في واقعي يغريني، لم تعد لي رغبة في ممارسة أي شيء بمتعة،
أنا بحاجة إلى أن أموت حتى أشعر أني ما زلت على قيد الحياة.

هل جربتم أن تناموا على خيبة أمل؟
هل جربتم النوم كل ليلة وأنتم تبكون؟
أنا جربت هذه الأحاسيس، فقد كنت كل ليلة أبكي بيني وبين وسادتي دون توقف، أنام على خيبة أمل وأصحو على وقعها مفزوعةً، ها أنا الآن أبدو غامضة قليلًا وهادئة بعض الشيء، عندما استيقظت وجدت ملامح وجهي قد شحبت جدًا بما لا يناسب عمري،
لا أحد غيري مسؤول عن هذا، أنا الوحيدة المسؤولة عن ملامحي الجديدة التي وصل إليها وجهي، صدمت، ذهلت، هالات سوداء تحت عيني! عيناي السوداوان الجميلتان متورمتان، وجه شاحب بارد كأنه ظل مدة كبيرة دون أكل أو شرب، وكأن أشعة الشمس لم تطل عليه لأيام، لم أكد أعرف نفسي، تمنيت لو أني كسرت المرآة، لكن لم تكن لدي الجرأة لأنني حين أكسرها سأشاهد وجهي الذابل مكررًا، فماذا سأفعل ببقايا الزجاج المتناثرة من حولي؟

****

الأسود جميل جدًا،
أبدو فاتنة به- هكذا أرى نفسي فيه أو هكذا قيل لي- رغم عشقي للبنفسجي والوردي والأزرق القاتم، الأسود يجعل مني أميرة أنيقة، يتوّجني ملكة، يطوّقني بهالة سوداء تسحبني لثقبها كلَّما كبرت، لكن حزينة مغلفة بصمت غريب تقيم الحداد، كلما لبسته رافقتني الأعين المعجبة العاشقة أو الحاسدة الحاقدة، أنفاسي متوترة، لكن يسيطر عليّ هدوء غامض، ليس تكبرًا ولا غرورًا بل أخرسني الوجع،
بعيني أقول لهم:
- لا ترمقوني بنظراتكم الغريبة فلا أحد سيصدق أن فتاة مثلي الوحدة تلتهمها،
لو تمعنتم قليلًا لعرفتم أن كل هذه الأناقة والشياكة وكل هذا التصنع والهدوء مجرد برواز أضعه كإطار جميل على خلفيتي حتى لا أرى في أعين الأخرين نظرات الشفقة والمواساة.
أعتذر أني أعتذر كثيرًا،
على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب
فاجأني سؤال من خلفي:
- لمن تعتذرين ؟
- أنا اليوم أقدم اعتذارًا لنفسي، أمنحها لها كباقة ورود حتى تعاود العيش من جديد.

****

قال لي ذات يوم:

- أحتاج امرأة قلبها يسع السماء، امرأة من طينة مباركة، لا تشبه أحدًا، نعم هي بشرية، لكن بروح ملاك.

- وأنا يا سيدي أحتاج رجلًا، رجلًا ليس بإمكان الجميع الوصول إليه، أريد رجلًا صعب المنال كالأمراء الموجودين بحكايا الأطفال، يحاكي لغة عيوني، يفهمني قبل أن أتكلم، يسامحني عندما أخطئ.
أتعلم ماذا أحتاج؟
رجلًا يكون معي ولي، رجلًا يحتويني ويحتضنني، لا رجلا يتركني جالسة على أبواب الوحدة أنتظر، أحتاج رجلًا، لكن ليس ككل الرجال.

- أتعلمين يا جميلتي أنَّ أجمل الحكايات تبقى تلك المعطَّرة برائحة الطفولة فقط؟
ستظل الحياة تقدم الأصعب؛ تعلموا كيف تعيشوا بسهولة، تعلموا أنَّ الإنسان الأقوى هو الإنسان الأكثر مرونة.

ثمَّ أكمل مواصلا، وهو يتألم:

- بعض الأوقات نجد أنَّ العبارات لا تساعد على البوح بما نخفيه، تبقى أرواحنا تتألم بصمت، على شاطئ الصَّمت تقف بعض الكلمات حائرة منهكة أرهقها العبور الأخير.

بعض الشخصيات تشاركنا بطريقتها الخاصة أفراحنا وأحزاننا، لكن يبقى العالم الافتراضي الذي يحتوينا أقل قدرة على نقل جميع أحزاننا وأوجاعنا لهم، نحتاج في وقت من الأوقات أن نشعر بأحدهم يمسك بيدنا بطريقته الخاصة ويحتضننا ليقول لنا أننا أكثر أمانًا من قبل، ليخفف عنَّا أوجاعنا، لم يبقى شيء يمكننا عمله سوى الصمت علَّنا نستطيع أن نخفي ملامح الأسى في وجوهنا.

سألته حزينة:

- ماذا بك هذا المساء؟

- مُتعبٌ قليلًا.

- أعلم أنك متعب، وليس قليلًا بل كثيرًا، لكن هل يوجد ما أفعله؟

- لا تستطيعين فعل أي شيء، لا أنْتِ ولا غَيْرك، فقط اتركيني وحدي فأنا لا أجيد فن الغباء، ولا أجيد فن الادعاء، ولا أجيد فن الابتسامة الزائفة، ما أجيده يا سيدتي هو الصمت، ما أجيده هوا الحزن، ما أجيده هو الألم، يصعب أن تشعروا بشعور دون أن تجربوه من قبل، لذلك التزموا نمط حياتكم الهجين ما بين الواقعية و الاسترسالية، واتركوا الأسد الأسود منفردًا، فأنا بحياتي ما ندمت على سكوتي، لكنني ندمت على الكلام مرارًا.

رده كان عليّ قاسيًا جدًا، عندما نغضب يصيبنا قلق شديد، يفور دمنا، تتزايد دقات القلب، ينطلق الكلام من أفواهنا بسرعة كبركان ثار بعدما كان خامدًا لسنوات، عندما نغضب نقول كل الأشياء الصادقة، لكن في لحظة خاطئة، وبطريقة غير مناسبة فنجرح من أمامنا دون أن نحس أو نشعر بذلك.

****

يقولون أن الإنسان يولد من جديد مع الأيام السوداء، مع كل شيء صعب حوله، لكن بين كل هذا الظلام المحيط بي أراك كنور يأتي من بعيد.

قال لي:
- في بعض الأوقات نكون بحاجة إلى راحة من الحياة.
قال هذه الكلمات والحزن بادٍ على وجهه.

- خذ فاصلًا مؤقتًا.

- لا يوجد فاصل مؤقت في الجحيم، كل الأشياء متسارعة بشكل مخيف، هذا العالم يضيق بي جدًا ليصبح كالجحيم.

أنا فقط مرهق ومتعب وبائس، أريد أن أرتاح يا عصفورتي فقد أنهكني الأرق.

الغياب .... تلك النافذة التي تفتح على شارع مظلم لا تشرق به الشمس،

إنه ذلك الحزن الذي يسكننا بإقامة أبدية، يستوطن أعماقنا ليتركنا ننزف ببطء.

أخبرني كيف أنقل لك تعبي وألمي، في كل مرة تؤلمني وترحل لأنك تضمن مغفرتي، هذا ما جعلك مطمئنًا. تغيب وترجع كما يحلو لك، لكني أقول لك اليوم أنك كسرتني، مزقتني، شتتني، خذلتني كثيرًا، لكن رغم كل هذا وذاك ما زلت أحبك!

****

حياته صعبة، يستحيل لأي كائن أن يتعايش معها ويظل صامدًا، لكن مع هذا كنت أغضب كثيرًا منه خاصة عندما لا يرد عليّ ويتجاهلني، دائمًا أعاتبه رغم أن عتابي كان حبًا بشكل آخر.

قلت له:

-هذه آخر مرة أحدِّثك فيها.

سأل وكأنه لا يدري:

- وت (ماذا)، آخر مرة لأي شيء؟!

- لا تهتم، كنت أريد أن أطمئن عليك وأذهب.

ينطق متفاجئًا:

- ماذا حدث؟ بالله عَليْك أخبريني!

- قلت لك لا يوجد أي شيء مهم، كيف حالك؟

- الحمد لله، كله تمام وعال العال(ابتسم كي يستفزني و هو يغمز بعينه).

- الحمد لله أنك بخير، هذا هو المهم، لقد أسعدتني كثيرًا.

- لا، أنتِ المهمة.

- أنا لست مهمة عند أحد!

- بالنسبة لي لست مهمة بل أهم من الأهم.

- آه تنصب عليّ آه!

لأيام بعدها اختفى ولا أدري لماذا، الانتظار الطويل يولد لدينا حالة من الضيق والاكتئاب، كان يحادثني كأنه ليس معي

حتى سألته:

- ماذا بك؟

- مريض أنا!

- سلامتك، ما تشوف شر ماذا بك.

- في حمى صارلها أسبوع، لكن أمس الحمى زادت أرهقتني.

- أنت أخذت علاج؟ ذهبت لدكتور؟ أخبرني ماذا حدث، متأكدة ما عم تلبس منيح، ولا تهتم بأكلك.

- لا ما بيفيد المضاد الحيوي فقط يهدئ.

- يعني علاج الدكتور ما يفيد؟ طيب قولي إش اللي يفيد، غلي أعشاب وخذلك دوش بماء بارد مثلج وترجع الحرارة طبيعية، بصير ممرضة وصية عليك، لكن لا تتذمر من فضاضتي.

- ما أريد شيء، أريد بس أمي!

وقع عليّ كلامه كصدمة، كمن أصيب بصعقة كهربائية، لثوانٍ جلست واغرورقت عيناي بالدمع، لم أعرف ماذا أقول، ماذا أجيبه، يا الله!

صمت ليس من عادتي، ففي أوقات شجارنا وقتما أكون غاضبة لساني يصير مترين حتى أنه كان يقول:

- بتصيرين نكدية! وتقلبين نفسية بسرعة.

لكن لأول مرة ينعقد لساني ....

- يا قلبي عليك، الله يرحمها ويسكنها الفردوس الأعلى، لا تزعل هي فوق عم تشوفك، أنت بس إدعيلها، أنا هون بعرف ما بحل محلها بس أعمل أي شيء.

- يا صغيرتي، أنْتِ غالية ومقامك تعرفينه جيدًا، لكن الحنين للأحباب صعب.
- صدق كلامك، لن أستطيع أن أحل محلها أبدًا.
- لا تحزني!
- لا والله لم أحزن، لكني لا أعرف ماذا أفعل لك حتى أخفف عنك قليلًا وترتاح لهذا تضايقت.
- لا تفعلي أي شيء، لكن أريد دعواتك الله فوق.
- هذا ما أفعله حتى دون أن تطلب مني، لا أحتاج لوصاية فأنا أدعو لك دائمًا، فقط انتبه لنفسك، لا أريد أن أتعبك وأثقل عليك، سلامتك.

قبل أن تذهب أريد أن أقول لك أني أتمنى أن أكون بجانبك، أحضنك وأحكي لك كثيرًا، أغني لك (طير يا حمام)، أقيس حرارتك بين الفينة والأخرى، أعتني بك يا روحي، لكن ليس بوسعي هذا.
لا تهتم لخرفاتي، أتمنى لك الشفاء، نم وارتح.

كم حزنت ليلتها! لم يكن باليد حيلة، حتى كلماتي لا أظن أنها قد لامست جرحه ليطيب قليلًا، ليتوقف النزيف، بدا لي أن جراحه عميقة، عميقة جدًا لدرجة لا أتخيلها.

****

الأحلام هي أماكن نصنعها في مخيلتنا ونجعلها كقلاع محصنة مغلقة حتى لا يدخل إليها أي أحد ويخرب ما بنيناه بأيدينا، أماكن نخلقها لنرتاح قليلًا كلما ضاق علينا واقعنا بحقائقه المريرة والبشعة، نذهب هناك بنية الابتعاد عن الجميع، نهرب منهم، قد تصبح زنزانتنا في يوم من الأيام إذ ما التقى الحلم والواقع وجهًا لوجه واصطدما فنعاقب أنفسنا لأننا تمادينا كثيرًا وتجاوزنا كل الحدود المعقولة بسجننا الوهمي، لكن أحلامي باتت بالية رثة.

أحاول أن أحمل ما تبقى مني، بعض الأحلام جميلة ورائعة، وبعضها تكون شبه مستحيلة، غبية، عنيدة، وطفولية، والطريق إليها مفخخًا ملغمًا وغير واضح، لكن الأحلام رسمناها لنعيش، الأحلام رسمناها لتتحقق.

****

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

اليوم أنا لست بمتعبة، لست صامتة، ولكني لست متحدثة.

هنا في داخلي شيء يسري في عروقي، يجعلني عاجزة كمشلولة، كمشلولة دون أي رغبة لي بالحراك ولا بالنطق بل أراقب فقط.

في هذه الحياة ستجد من يقف معك ومن يقف ضدك، من يسندك ومن يخذلك، من يحبك لصفات فيك ومن يحبك فقط لأنك أنت، من يظل معك دهرًا ومن يمر كعابر سبيل.
كما قال فايز المطيري:

فالشخص الذي اختارك في الزحام يختلف كثيرًا عن الذي لم يجد سواك في طريقه.

****

في الحب لا توجد نقاط وفواصل، لا يوجد علامات استفهام أو تعجب، الحب يجب أن نعيشه كاملًا دون نقصان، بضجره وتفاصيله، بجنونه ومشاجراته، بعفويته وبراءته حتى النقطة الأخيرة.

الأنصاف عند المحبين غير مرضية؛ فنصف التواجد وجع، ونصف المشاعر جريمة، في الحب

لا يقف عاشقان في المنتصف، إما قرب بجنون أو مفارقة ورحيل.
من نحبهم ستظل صورتهم كما علقت في ذاكرتنا عارية من كل زيف.

الشخص الذي يفهمنا دون حتى أن نتكلم، الذي يمسح أحزاننا ويسمعنا دون تذمر، الذي يشعرنا بالأمان الجميل والغريب، الذي يغنينا عن العالم كله في حضوره، هذا الإنسان غيابه سيكون موجعًا.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

****

اليوم أقول لك أنك الوحيد الذي سكن قلبي وجلس بين نبضاته ووهبني أجمل حب؛ لهذا كلما تخطئ بحقي أسامحك من بين الكل؛ لأنك- ودون أن أنتبه لذلك- سلبت مني عقلي، وجعلتني أحبك.

فقط لأني أحبك، غفرت لك كل شيء.

ليتني أستطيع أن أستوعب غيابك الطويل هذا. ليتني ولو لمرة أفهم السبب.

****

هنالك أشياء حدثت بالماضي لم تغادره، ومهما حاول تظل معه أينما ذهب، ذكرياته كأسراب عصافير مهاجرة تبحث عن مكان دافئ لتبني فيه عشًا، تجعله فرحًا، يختنق كمجروح، يتخبط من شدة الألم، كل شيء توقف عنده في الماضي.

أحيانًا يحلم لو أن هناك يدًا سحرية تأتي وتقتلع كل ما في داخله من آلام وأحزان وترمي بها بعيدًا، وأحيانًا يتمنى أن يتوقف عن الحلم.

****

للحنين أوهام كحلم يقظة في ليلة صيفية.

رضيت بأنصافك: نصف ذهابك، نصف حضورك شبه الغائب، لكن إذا أتيت يجب أن تأتي هذه المرة بكاملك.

على خطى مجهول

لازلت أنتظرك، ضحيت كثيرًا لأجلك وبعد كل هذه التضحيات بنظرك أكون المذنبة والعصبية والنكدية والنفسية وأكون .... وأكون ....

الحسناء عباس الشهاب

دموع اشتياقي لك أنبتت زهرة نرجس على خدي.

****

لازال حلمي ناصع البياض، كفراشة جميلة كنت أطير أشبه بوردة توليب تتأرجح بين عواصف الرياح وهطول المطر، لمحته فجأة نائمًا كالملائكة فانتظرته حتى يستيقظ.

أنت ذلك النور الذي ظهر وسط الظلام، أنت الربيع الذي أزهر في قلبي بعد شتاء قاسٍ،

كبقايا عطر مرشوش على جسدي أنت، كرائحة التراب المميزة بعد نزول المطر.

أتعلم يا غائبي ماذا تعني لي؟

أن أدعو لك في صلاتي وأقبل صورتك قبل أن أنام، أن أتخلى عن كل أحلامي لتصبح أنت حلمي وكل حياتي، أن أراك في كل شيء حولي، وألمح وجهك في كل مكان، أن يختفي الكل في وجودك، وأن أضع يدي على قلبي فأحس بك بين نبضاته، ألاَّ أنام إلا على أغنيتك المفضلة، وأفيق والسعادة تغمرني فقط عندما أتذكرك، ألاَّ أرى إلاَّ صورتك بين عيني، وأن أبحث عن سعادتي فلا أجدها إلا فيك وفي كل تصرفاتك، أني كلما تذكرت ابتسامتك في مخيلتي تملكني شعور بالفرح، أن أقلد بعض تصرفاتك دون وعي مني، أن أتحدث بكلماتك مقلدة لهجتك وصوتك الخشن، أن أراك الأجمل والأفضل بلا شبيه، أن أشتري سعادتك، أن أغفر جميع خطاياك، يعني أن كل رجال العالم ماتوا في نظري من بعدك، أن أقول لهم جميعًا أنك أكثر من الاهتمام ومن القلق والخوف، أكبر من الحب نفسه.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

****

بأنانية زهرة النرجس ورائحة التوليب أحبك جدًا.

أتعلم يا أنت؟

الوقوع في حبك كان كالجلوس في نار مشتعلة مع عدم شعوري أني أحترق أو سأحترق قريبًا.

حبك كتمرد فتيات حي محافظ على العادات بالرقص، رقص غجري جريء، في وسط الشارع وهن ترتدين خلخالًا.

****

أحدث أن أحببتم رجلًا غريبًا حضوره مميز وغيابه أنيق؟
أحدث أن أحببتهم شخصًا بهذا الوصف؟ أحدث معكم هذا؟
كطفلة جعلني أصنع من رمال الشواطئ قلاعًا لأسكنها معه، نسجته ككنزة من الصوف بيدين صغيرتين دافئتين حنونتين محبتين، تعلمت معنى الحب والتضحية، تعلمت معنى أن تسكن أحدهم قلبك وتغلق عليه بإحكام، قصتي كانت غير كل القصص التي حدثت؛ فهو موجود بين كلماتي، على ذاكرتي، بين ثيابي وأوراقي، سلب مني ماضيّ، احتل حاضري، وحجز مستقبلي!

أصبحت ضحكتي، قوتي، أملي، وسر سعادتي، مصدر إلهامي، وكل شيء في حياتي

يا أميري.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

فأي حب هذا الذي يفوق الحب نفسه؟
هل أدركت الآن كم أحبك؟

ربما لأني في عينيك الغريبتين لمحت ما لم يره غيري.

لقد تبعثرت مشاعري، تشتت أفكاري، إنه يشبه صاحب الظل الطويل المختبئ في قصص الأطفال، لطالما تمنيت أن يسند حياتي شخص مثل صاحب الظل الأسود الطويل، إنه أمر مثير أن تطارد خياله دائمًا، يشعرك ظله بالأمان الكبير، تنتظر رسائله بلهفة، تشتاق لتعرف الشخص الذي يقف خلف ذلك الظل الأسود، غريب ومجهول وفريد، لكنه وفي ومحارب غامض يجعل من المستحيل ممكنًا، هو الذي يقول دائمًا لا عليكِ، لا تخافي، أنا بجانبك.

كيف حالك يا أنت؟
أخبرني عنك، منذ زمن بعيد لم يحدث أن التقينا، أريد الاطمئنان على ذاكرتك الموجعة.

ما حال قلبك الذي يشبه قلب الملاك؟
كيف هي الحياة معك؟
كيف أصبحت العصافير والفراشات؟
لازلت أصبر، وكلما ضعفت تمدني بالقوة، أنتظر كل يوم قدومك بفارغ الصبر.
أين أنت مني يا صاحب الظل البعيد؟

يا أنت، يا صاحب الظل البعيد، انتبه لنفسك جيدًا فأنت تخصني وحدي.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

هدية لغائبي...

أهديك اليوم ما تبقى من زجاجة عطري لعلها تعانق صدرك، وتلامس يديك، وتنقل لك حنيني ولهفتي مع هذه المسافات.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

الوحدة من أسمى المشاعر، الوحدة لا تعني الحزن أو التعاسة، كما أنها لا تمثل الفرح والسعادة، الوحدة هي أن تختلي بنفسك، تجلس في زاوية بعيدة عن الكل، تراقبهم وكأنك لست منهم، وكأنك تعيش بكوكب مختلف عنهم تمامًا.

لم أعد أعرف متى ستعتزلني هاته الوحدة أو أعتزلها، إلى متى أظل أرقب بصمت؟

إلى أين أمضي؟

إلى أين تأخذني خطواتي هذه المرة؟

لا أدري!

أنت وجع قلبي و فرحته، إليك أمد كفي الصغيرتين، ضمني إليك، خذني من نفسي، من كل شيء حولي، خذني لنذهب إلى مكان بعيد يفيض بالسعادة.

أتعلم يا غائبي أني عشقتك كما يُعشق الأبطال في الروايات والحكايا وأكثر؟

فقد كان العشاق يتواصلون بالرسائل المكتوبة التي يحملها الحمام الزاجل، آه لو تحملني العصافير إليك وتأتي ببعضك معها، إنه لشرف للطيور أن تحمل مشاعرنا وأحاسيسنا، عطرنا وكلامنا، يبدو هذا لي رائعًا، أتمنى أن ألقاك حتى ولو في الأحلام، لكنها الأقدار

يا صغيري.

رغبت برؤيتك كثيرًا، حلمت بك في منامي، تمنيت لقاءاتك وبكيت لأجلك، لكن هذه هي الحياة.
ورغم ذلك تبقى لدي في تلك الزجاجة المنسية قليل من الأمل لعيش الحياة كما أريد حتى وإن لم أستطع سأحاول.

على خطى مجهول
الخنساء عادل الشهاب

صدري مثقل بالكلام و الحكايا، أكتب إليك، أعلم أنك لن تستطيع قراءة كل ثرثرتي أو بالأحرى لن تهتم لخربشاتي و شخبطاتي.

****

أريد أن أصبح غريبة، أريد أن أفصح عن مشاعري وأحاسيسي لك دون أي
خوف ودون أن يسألني أحد:
من هو؟
متى حدث هذا؟
كيف؟ وأين؟
أريد أن أحادثك دون أن أحاسب وكأني اقترفت جريمة، أريد أن أمسك يدك، أبكي على كتفك وأفرغ كل همومي، أريد أن أعيش حلمي معك وأحقق معك كل ما تمنيت، أن ألتقيك وألمس وجهك وأنظر إلى عينيك الجميلتين دون أي خجل، دون أي ميعاد أو حواجز، دون أي موانع أو معوقات، أود لو أنام بحضنك آمنة، أداوي جراحك، أكون دواءً لأوجاعك، أريحك من كل الأحزان، وأصبح كفراشة ترقص فرحًا بقدوم الربيع، وأنثر ألواني لعلي ألون عالمك المظلم ولو لمرة تحتضنني فيها بقوة وتخبرني أن كل شيء سيكون بخير، أريد أن أعيش معك دون قلق أو خوف؛ فهذا الشعور فظيع ومخيف.

الخنساء عباس الشهاب

لفترة طويلة من الزمن انتابني حزن عميق ولم أدرِ أن أحلامي البسيطة التي ظننت أنها ليست بالصعبة ظهرت أمامها كل هذه المعوقات وواجهت كل هذا الرفض والعدوان، أترى أن الخطأ بسبب أحلامي أم بسببهم؟
يقفون أمام أقدامي الصغيرة كحجرة لأتعثر، وكلما وقعت أقوم ليعيدوا الكرة، يريدون مني أن أتعب وأصبح متهالكة حتى تخور قواي ولا أقوم من جديد، يريدون أن يأخذوا كل شيء مني حتى أحلامي الصغيرة.

ردد بعضًا من قصيدة عبد العزيز المقالح فقد كان يحب كتاباته:

هنا ينام متعبًا من أتعب الأيام والفصول

من عبرت خيوله فوق جبين الشمس والزمن

فما ونى ولا وهن

حتى ونت من تحته الخيول

و استسلمت لراحة الكفن

فأثر القفول ونام موهن البدن

التفت ثم أكمل وقال:
- العبء أصبح ثقيلًا عليّ، ألن تخففي هذا العبء قليلًا ؟
أنتِ ....
أنتِ السماء، أنتِ الحرية، أنتِ العصافير، أنتِ الفراشات، أنتِ كل شيء جميل، وأنا مسجون كسلطان في قفص أبدي، موجود وسط بئر لا قاع له ومشاعري طريق لا نهاية لها، لكني أسلم نفسي وأمشي حتى نهاية هذا الطريق، سأضيع داخل هذا البئر حتمًا، حتى أدخل القبر برجلي، إلى أن أتناسى وأنسى هناك.
قلت له :
صدقني حتى الغياب سيمل ويغيب يومًا، ربما ذات يوم ربيعي مشمس أو يوم صيفي حار نلتقي، معجزة ربما نحتاج إلى معجزة حتى نجتمع معًا، قصتنا غريبة جدًا، لكنها أجمل القصص، لنختبئ إذًا، آه لو نختفي وألا نكون فصلًا أو جزءًا، آه لو نصبح مجرد رواية، رواية تكون بلا نهاية.
سكت فاسترسلت :

- أخبرني أنك هنا في قلبي ولو كذبًا!

قل أنك معي و بجانبي، قل أنك لن تتركني أبدًا وأنك لن تذهب لأي مكان، ولا تقل أي كلمة أخرى، إن كان هذا ممنوعًا فالممنوع لا يهمني حتى لو كان مستحيلًا، لا يهمني أبدا، يكفي أن تحبني.

- لا يكفي.

- بل يكفي.

يكفي من أجل أن أعيش بقية حياتي، يكفي من أجل أن أتحمل ما حولي، ألا ترى أنَّ ما يجري حولي يشبه الهواء المسموم؟

كن أنت الهواء النقي الذي أتنفسه كي لا أختنق بهذا السم، هل هذا كثير عليّ؟

****

كان أشبه بحلم، جلس يتأملني، نظرت إليه طويلًا بأعين شخص مشتاق، بنظرات عتب خجولة، ابتسم هو لأضيع أنا تلك الابتسامة التي تأسر العالم أجمع وكأنه قد تفتحت أزهار الأقحوان من حولي وحل الربيع، لكنه كان يبدو حزينًا خائفًا.

على حافي مجهول
الخنساء عباس الشهاب

نطق ليقول :

- اسمعي...اسمعي جيدًا.

- ماذا هناك؟!

- استمعي جيّدا إلى الهدوء الغريب، لقد تركت نفسي لهذا الهدوء يبتعلني، يأخذني إلى مكان آخر.

- لا تتحدث هكذا!

- أترين الظلام؟

أنتِ فقط ذلك النور الذي يضيئه، الظلام أيضًا مثل الهدوء يومًا ما سوف يبتلعني.

- أنا خائفة، ما بالك تتحدث هكذا؟

- حتى أنا خائف من نفسي!

أخاف أن يظهر شخص آخر، شخص مختلف عني تمامًا من وسط هذا الظلام، حتى نورك أخاف أن يصبح باهتًا و يتلاشى، لا تتركيني!

- أنا أحبك أنا بجانبك لا تخف، سأظلُّ معك، سأمشي معك إلى نهاية الطريق؛ لأنني أثق بك كثيرًا.

- هل تثقين بي إلى هذه الدرجة؟
- طبعًا!
ربما لأنني أراك بعين المحبة العاشقة، وربما لأنني ربطت حياتي بحياتك.

نطق بكلماته المبعثرة، كلماته النابعة من قلبه البريء :

- جميلة هي الأشياء التي يصنعها القدر أحيانًا، نحن أشبه بوردة عطرة في طريق طويلة نحتاج للأمل كي نكملها، جميل ذلك الشخص الذي عندما نتعثر يأتي لمساعدتنا دون تردد، يأتي بقوة وحب وإصرار على عدم الرحيل إلا برفقتنا.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

يأسنا المصنوع من فولاذ الانكسار يصبح هشًا قابلًا للتحطيم بوجود ذلك الشخص، في تلك الطريق الطويلة تُزرع الألغام لتصيبني فلا أستطيع الحركة وأرحب بالاستسلام.
أسمع ذلك الصوت الدافئ في أعماقي :

(لم تصل للنهاية بعدن ما زلت قادرًا على المضي، انهض! سأحملك لا تقلق)

كان الصوت بعيدًا في البداية، لكن سرعان ما حملني معه إليه أكثر وأقرب وأسرع، أبكي عندما أشعر بقربه، منذ وقت طويل لم أسمع أحدًا يمتلك القوة ليأخذني معه، لا أحد يمتلك

تلك المشاعر وذلك الطهر معًا في قلبه،
سأكمل الطريق، نعم سأكمله، أعدك برفقتك، نعم برفقتك حتى نصل.

****

لقد ذهب بعقلي، احتل قلبي، سكن روحي، أخذ مني كياني، واختزل العالم فيه وحده، لازلت أحدث الجميع عنك، لازلت أضع اسمك كبصمة في كل مكان أذهب إليه؛ حتى تبقى الأماكن شاهدة عليك، أصبحت تعني لي الحياة، الحياة بأكملها.

أحطته بيدي لأنقذه من الضياع، لأنقذ ما تبقى منه وأنتزعه من وسط الأشواك، كطفل هو متسكع مشاغب يجول الشوارع بأقدام صغيرة.

على خطى مجهول
الخنساء عباس الشهاب

أتعلم يا حبيبي أنك وعدتني؟

وعدتني أنك ستدعمني ولن تتركني، اصبر قليلًا، تحلّ ببعض من القوة فأنا لا طاقة لي على إتمام الطريق وحدي، قلت لي أكملي طريقك دون أن يقف شيء أمامك يا مجنونة، وأنا أقول لك اليوم أني لا أقدر فقد اعتدت على دعمك وسندك، لا تتركني فلا قوة لي هذه المرة على الرحيل، لن أستطيع مواصلة الطريق

من سيتقدم معي؟ من سيراقبني وينصحني، يعاتبني ويزعل مني ثم يصالحني؟

سنتجاوز كل العثرات معًا، إن شاء الله.

لقد تفتحت الزهور في قلبي من جديد

بإمكان فراشات حبك أن تحط عليها بسلام.

لازلت واثقة بوعودك متشبثة فيك، لازالت أمسك يديك بكل قوتي كطفلة، أنت من يمكنه الوقوف بجانبي في مواجهة الزمن، كن عضدي وسندي، لا تخذلني رجاءً، كن أنيس وحدتي ورفيق غربتي، أعطني يدك وأمسك بكفي جيدًا حتى لا أضيع في هذه الحياة.

ساعدني كي أجد الطريق إلى الطريق، دلَّني أين أمشي، احجب عني باقي البَشرْ، علِّمني معنى الحياة، علِّمني كيف نعيش لبعضنا أنا وأنت فقط.

لا زلت أصنع حلمًا بعيدا في مخيلتي يجمعنا، حلمًا كالسراب يكون اللقاء فيه رائعًا يفوق كل الخيال و جميع الأوصاف، أعلم تمامًا أنك ستأتي، لكنك ستأتي متأخرًا، متأخرًا جدًا!

أعرف أنه ربما يطول انتظاري ورغم ذلك سأنتظرك،

سأظل أنتظر لتكون لك عودة .... حتى ولو كانت عودتك بعيدة جدًا.

ما كان مجرَّد عابرٍ بل كان الحياة بالنسبة لي؛

لذا سأظل أمشي تَائِهة على خطى ذلك المَجهولْ.